

سُورَةُ الشُّورَى

حين يصير الوحي ميزانًا للقلب والعالم



تأليف: رَدَاد السَّلَامِي

سُورَةُ الشُّورَى

حين يصير الوحيُ ميزاناً للقلب والعالم

تأليف : رَدَّاد السَّلَامِي

المحطة الأولى

﴿حم * عسق﴾: حين يبدأ الوحي من وراء الحروف

تبدأ سورة الشورى قبل أن تبدأ الكلمات.

كأنها تريد أن تُخرجك، منذ اللحظة الأولى، من مألوف اللغة إلى مهابة الوحي؛ فلا تدخل عليها دخول من جاء يبحث عن معلومات، بل دخول من وقف على باب سرٍّ عظيم، ثم أُذن له أن يقترب.

﴿حم * عسق﴾

حروفٌ تعرفها.

تمر على لسانك كل يوم، وتكتب بها رسائل، وتنظم بها كلامك، وتسمي بها الأشياء من حولك؛ ولكنها هنا لا تبدو كالحروف التي تعرف.

فالقرآن يأخذ المألوف، ثم يضعه في موضع يجعلك تشعر أنك لم تعرفه قط.

إنها الحروف ذاتها التي يتكلم بها العرب، ومنها تتألف خطبهم وأشعارهم وأخبارهم، ثم إذا اجتمعت في هذا الكتاب خرج منها كلام لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

وكان مطلع السورة يهمس للعقل:

هذه المادة بين يديك، والحروف حروفك، واللسان لسانك؛ ولكن السر ليس في الحروف وحدها، بل في المتكلم بها.

وهنا تبدأ أول تربية في سورة الشورى:

أن تعرف حدودك.

فالإنسان يحب أن يفتح كل باب، وأن يسمي كل غيب، وأن يجد لكل شيء تفسيراً سريعاً. لكن الوحي يضع في أول الطريق حروفاً لا تملك في تعيين مراد الله منها قولاً قاطعاً، فيتعلم العقل المؤمن أدباً هو من أشرف آدابه: أن يقف حيث انتهى علمه، دون أن يشعر أن الوقوف هزيمة.

ليست المعرفة أن تقول في كل شيء شيئاً.

أحياناً يكون أصدق العلم أن تعرف أين ينتهي علمك.

ولهذا فإن ﴿حم * عسق﴾ ليست فراغاً في المعنى، بل امتلاءً بالمهابة. إنها تضعك أمام القرآن بوضعية المتلقي لا المتحكم؛ السامع لا المتعالي؛ العبد الذي يعلم أن وراء ما يدركه أفقاً لا يحيط به.

ثم، وما إن يسكن القلب أمام هذا المطلع المهيّب، حتى يأتي البيان: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. هنا تنفتح السورة كلها تقريباً في جملة واحدة. الوحي.

هذه هي القضية الكبرى.

وهذا هو النهر الذي ستخرج منه بقية مشاهد السورة: التوحيد، والآخرة، ووحدة الرسالات، واختلاف البشر، والشورى، والرزق، والمصائب، والعفو، وتقلبات الدنيا، ثم العودة في الختام إلى الوحي من جديد.

فالسورة تبدأ بالوحي، وستنتهي بالوحي.

كأنها قوس نور، طرفه الأول:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾

وطرفه الأخير:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾.

وبين الوحي والوحي تمضي حياة الإنسان كلها.

ما أجمل هذا البناء!

في أول السورة يخبرك الله من أين يأتي النور، وفي آخرها يخبرك ماذا يفعل النور حين يصل:

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

فليست سورة الشورى سورة نظام اجتماعي فحسب لأن فيها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾؛

بل هي، في عمقها، سورة مصدر الهداية.

من أين يأخذ الإنسان تصوره؟

من أين يعرف الله؟

من أين يعرف نفسه؟

من أين يعرف قيمة الدنيا؟

من أين يعرف حدود القوة والرزق والمصيبة والنعمة؟

ومن أين يعرف الطريق حين تتنازع الطرق؟

الجواب يبدأ هنا:

من الوحي.

ولهذا لم يقل السياق مجرد: أوحينا إليك.

بل قال:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وفعل ﴿يُوحِي﴾ بصيغته الحية كأنما يجعل الوحي حدثاً نابضاً حاضراً، لا ذكرى تاريخية باردة.

الوحي ليس خبراً عن السماء مضى وانتهى.

إنه الصلة التي أنقذت الأرض من أن تنغلق على نفسها.

فالإنسان، إذا ترك وحده داخل أسوار الحس، لا يرى إلا ما تراه عيناه، ولا يقيس إلا

بما وصلت إليه تجربته، ولا يعرف من الوجود إلا الشاطئ الصغير الذي يقف عليه. ثم يأتي

الوحي فيفتح في جدار العالم نافذة على ما وراء العالم.

بفأة يعرف الإنسان أنه لم يُخلق عبثاً.

وأن موته ليس نهايته.

وأن الظالم لا يفلت.

وأن المظلوم لا يضيع.

وأن فوق الأسباب مسبباً.

وفوق القوة قوة.

وفوق التاريخ قدراً.

وفوق تقلبات الأرض حكمة لا تراها العين أول الأمر.

إن الوحي لا يضيف إلى الإنسان معلومةً جديدةً فحسب؛ إنه يعيد ترتيب الوجود كله في

وعيه.

ولهذا جاء الاسم الجليل في نهاية الآية:

﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

العزیز.

الحکیم.

قوة لا تُغلب، وحكمة لا تختل.

وهما اسمان تحتاجهما النفس بشدة وهي تتلقى الوحي.

فقد يسمع المؤمن أمراً من أوامر الله ولا يدرك جميع وجوه حكمته، فيقال له: الذي أوحى إليك حكيم.

وقد يرى العالم يعج بالطغيان، ويظن أن كلمة الحق ضعيفة وسط ضجيج القوة، فيقال له: الذي أنزل هذا الوحي عزيز.

وهكذا يجتمع في قلب المؤمن الاطمئنان من جهتين:

ليس هذا الكتاب صادراً عن حكمة عاجزة.

ولا عن قوة عمياء.

بل عن العزيز الحكيم.

قوة تعرف أين تضع الأشياء.

وحكمة لا يعجزها تنفيذ ما تريد.

ثم لا تترك السورة طويلاً تنظر إلى الوحي وحده، بل ترفع بصرك فجأة إلى الكون كله:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

انتبه إلى هذه النقلة.

من الحروف...

إلى الوحي...

إلى السماوات والأرض.

كأن السورة توسع مجال رؤيتك درجة بعد درجة.

كنت أمام خمسة حروف، فإذا بك بعد آيتين تقف أمام الكون كله.

وهذه إحدى جماليات القرآن الكبرى: أنه يستطيع أن ينقلك من أصغر البدايات اللفظية

إلى أوسع الآفاق الوجودية دون أن تشعر بانقطاع الطريق.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ليست السماوات مستقلة عنه.

ولا الأرض خارجة عن ملكه.

ولا البشر الذين يصخبون فيها يملكون أنفسهم على الحقيقة.

ولا الممالك التي تبدو ضخمة إلا أشياء صغيرة داخل ملكه.

ولا الأموال.

ولا الجيوش.

ولا الحضارات.

ولا القلوب.

ولا الأعمار.

له ما في السماوات وما في الأرض.

وما أثقل هذه الآية في ميزان القلب إذا تدبرها الإنسان حقاً!

كم من خوف سيسقط لو استقرت؟

وكم من تعلق سيضعف؟

وكم من طاعية سيصغر؟

وكم من شيء كان نظنه ملكاً لنا سنكتشف أننا لم نكن سوى مستودعين عليه زمناً قصيراً؟

ثم:

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

وليس علوهنا مجرد كلمة تمر بالقارئ، بل انتقال كامل في موقع القلب.

حين تستولي عليك الأرض، يرفعك القرآن.

حين تضيق رؤيتك حول حادثة أو إنسان أو خسارة أو تهديد، يقول لك:

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

فليس العظيم في الحقيقة ما عظم في عينك من أمر الدنيا.

العظيم هو الله.

وليس العالي من ارتفع منصبه أو اتسع سلطانه.

العالي هو الله.

وحين تصح المقاييس في القلب، تصغر أشياء كثيرة كانت ترعبه.

إن أكثر مخاوف الإنسان تولد أحياناً من خلل في الأجسام؛ نكبر المخلوق في داخلنا حتى

يجب عنا الخالق، ونكبر المشكلة حتى تصبح أكبر من يقيننا، ونكبر الدنيا حتى تضيق

الآخرة في وعينا.

ثم تأتي آية واحدة فتعيد الأشياء كلها إلى أجامها:
﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

ثم يحدث شيء مدهش.

بعد أن قررت السورة ملك الله وعلوه وعظمته، تنظر إلى السماوات، فإذا بها تكاد تنفطر:
﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أي مشهد هذا؟

إنك لا تعود قارئاً جالساً على الأرض.

القرآن يأخذك إلى مشهد كوني هائل.

سماوات عظيمة تكاد تنفطر من فوقهن، وملائكة في عبادة دائمة، وتسيح يرتفع في
الملوكوت، واستغفار ينزل أثره على أهل الأرض.

إنها مقابلة تهز القلب:

السماء مملوءة تسيحاً، والأرض مملوءة تقصيراً.

الملائكة يسبحون.

والبشر يعصون.

الملائكة يقدسون.

والإنسان يخاصم ويتكبر ويعرض.

ومع ذلك...

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

يا لعجيب الرحمة!

كأن الأرض، بكل ما عليها من ضعف وخطايا، محاطة من فوقها بدعاء الطاهرين.

الإنسان ينام وقد لا يعرف أن في ملكوت الله من يستغفر لأهل الأرض.

ويمشي مثقلاً بذنبه، وبين السماء والأرض أبواب رحمة لم يرها بعينه.

ويخطئ، ثم يظن أن الوجود كله قد لفظه، فإذا بالسورة تكشف له أن فوقه ملائكة

يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لأهل الأرض.

ثم يأتي التعقيب الذي يحتاجه المذنب كما تحتاج الأرض المطر:

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لاحظ: لم يقل فقط غفور رحيم.

بل:

﴿إِنَّا إِنَّا اللَّهُ هُوَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كأن الآية تريد أن توقف الهارب.

أن تلفت وجه المذنب الذي ظن أن لا طريق للعودة.
ألا.

انتبه.

اسمع.

لا تجعل ذنوبك تحجب عنك معرفة ربك.

﴿إِنَّا إِنَّا اللَّهُ هُوَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وما أعجب أن يأتي ذكر المغفرة هنا، في مشهد السماوات المتفطرة!

كان المتوقع في الحس البشري، أمام العظمة الكونية، أن يطغى معنى الهيبة وحده.

لكن القرآن يجمع لك ما تنفرق فيه تصورات البشر:

العظمة... والرحمة.

العلو... والمغفرة.

الملك... والعناية بالمذنب.

فالذي تكاد السماوات يتفطرن من جلالة هو نفسه الذي يفتح لعبده باب العودة.

وهكذا لا يريد القرآن أن تعرف رباً تخافه فقط، ولا رباً ترجو رحمته دون مهابة؛ بل أن

يقوم القلب بين جناحي المعرفة:

جلال يردعك، وجمال يجذبك.

ثم تنزل السورة من ذلك المشهد السماوي مرة أخرى إلى الأرض، إلى هؤلاء الذين

اختاروا لأنفسهم أولياء من دون الله:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

ما أسرع الإنسان إلى صناعة أوليائه!

إنه يخاف، فيبحث عمن يحميه.

ويضعف، فيبحث عمن يسنده.

ويطمع، فيتعلق بمن يظن أن بيده النفع.

ثم شيئاً فشيئاً قد يتحول السبب في قلبه إلى سيد، والوسيلة إلى غاية، والخلق إلى مركز اعتماد.

وهنا ترد السورة الإنسان إلى الحقيقة:

﴿اللَّهُ حَفِيطٌ عَلَيْهِمْ﴾.

فلا أحد يخرج من إحاطة الله.

ولا وليُّ اتَّخذه الإنسان يستطيع أن يحجبه عن ربه.

ولا باب يفتحه المخلوق إن أغلقه الله.

ولا باب يغلقه أحد إن فتحه الله.

ثم يخاطب الله نبيه ﷺ:

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

وهنا يظهر خيط دقيق سيمتد في السورة كلها:

الوحي هداية، لا إكراه.

مهمة الرسول أن يبلغ، أن ينذر، أن يدل، أن يحمل النور، لكنه لا يقتحم القلوب اقتحاماً. وهذه الحقيقة ستعود لاحقاً في السورة بأشكال متعددة: اختلاف البشر، ومشية الله، ومسؤولية الإنسان، ثم في آخر السورة حين يقال للنبي ﷺ إن هذا النور يهدي به الله من يشاء.

وهكذا تكون المحطة الأولى قد رسمت لنا خريطة السورة كلها تقريباً.

بدأنا بحروف غامضة تعلم العقل التواضع:

﴿حم * عسق﴾.

ثم عرفنا مصدر الطريق:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾.

ثم عرفنا صاحب الوحي:

﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم رُفِعْنَا إلى ملكوت السماوات والأرض:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم عَلَّقَ القلب بالعلي العظيم.

ثم سمعنا تسبيح الملائكة.

ثم فوجئنا بهم يستغفرون لأهل الأرض.

ثم فُتِحَ لنا باب:

﴿الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ثم نُزِعَت من القلب أوهام الأولياء من دون الله.

ثم حُدِّدَت وظيفة الرسول:

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

إنها ست آيات فقط، لكنك إذا دخلت أعماقها وجدت بناءً كاملاً للوحي.

الله فوق الجميع.

الوحي من عنده.

الكون ملكه.

الملائكة عباده.

الإنسان محتاج إلى مغفرته.

ولا نجاة له بأن يصنع لنفسه أولياء من دونه.

وهنا نستطيع أن نلح من بعيد سر التناسق بين المطع والخاتمة.

السورة التي بدأت بحروف:

﴿حم * عسق﴾

ستصل في نهايتها إلى الحديث عن طرائق كلام الله للبشر:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا

يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾.

تأمل:

في البداية حروف.

وفي النهاية حديث عن الكلام.

في البداية:

﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾.

وفي النهاية:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

في البداية:

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقرب النهاية:

﴿إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾.

كأن السورة دائرة محكمة لا يضيع فيها أول الخيط عن آخره.

فتبدأ بك وأنت واقف أمام باب الوحي، ثم تطوف بك في الإنسان والمجتمع والكون والرزق والابتلاء والسلطان والشورى والعفو والآخرة، ثم تعيدك في آخر الطريق إلى الباب ذاته، ولكنك لا تعود إليه كما دخلت.

كنت في البداية تعرف أن الله أوحى.

وفي النهاية تعرف أن الوحي روح.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾.

وهذه وحدها تكفي لتكشف طبيعة الرحلة التي تنتظرنا:

نحن لسنا أمام سورة تريد أن تزيد معلومات العقل فحسب.

نحن أمام سورة تريد أن تنفخ في القلب روحاً جديدة يرى بها الله والعالم ونفسه والناس والمصير.

ومن هنا تبدأ الرحلة حقاً.

من السماء.

من الوحي.

من الكلمة التي نزلت لكي لا يبقى الإنسان سجين الأرض.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: حين تُوَفِّقُ المدينة من غفلتها وُستدعى الإنسان إلى يوم الجمع

بعد أن رفعتنا السورة في المحطة الأولى إلى أفق الوحي، وجعلتنا نرى السماوات تكاد تنفطر، والملائكة يسبحون، والكون كله واقعاً في ملك الله، تعود بنا الآن إلى نقطة صغيرة على الأرض.

إلى مدينة.

إلى مكة.

إلى أم القرى.

ولكن القرآن حين ينزل على مكان صغير لا يبقى أثره صغيراً؛ لأن الوحي لا يقاس بمساحة الأرض التي بدأ منها، بل بالأفق الذي جاء ليفتحه.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

مرة أخرى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

كأن السورة لا تريد أن تترك قلبك يتبعد عن مصدر الكلام لحظة واحدة.

فهني لا تقول لك: اقرأ الأفكار.

بل تقول: تذكر دائماً أن هذا وحي.

فالفرق هائل بين أن تستمع إلى رأي بشري، وبين أن تستقبل خطاباً يخبرك الله فيه عن نفسك ومصيرك.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

هذه الرسالة السماوية لم تهبط غائمة، ولا مبهمة، ولا في لغة مستغلقة على المخاطبين.

لقد جاءت بلسانهم.

بألفاظهم.

بالمادة التي يصنعون منها خطبهم وأشعارهم وأحاديث أسواقهم؛ ثم صنع القرآن من تلك اللغة بناءً لم تستطع عبقريتهم أن تبلغ إليه.

وهنا جمال بالغ:

الله الذي يحدثنا عن السماوات والأرض، وعن الآخرة والملائكة والغيب، اختار أن يصل كل ذلك إلى الإنسان بكلمات يفهمها.

ففي الوحي جلال المصدر، ولكن فيه أيضاً رحمة البيان.

لم يريد الله أن يبقى الإنسان حائراً أمام المعنى.

أنزل إليه الخطاب في لغته.

وهذه وحدها نعمة لا تتأملها كثيراً:

أن تكون الحقائق الكبرى للوجود قابلة لأن تسكن ألفاظاً تجري على ألسنة البشر.

أن يصبح الحديث عن الله، والآخرة، والمصير، والغفران، والعبودية، والجنة والنار، قريباً

إلى السمع بهذا البيان.

﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

بدأ النداء من المركز.

من أم القرى.

لكن عبارة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تفتح الدائرة.

فالرسالة التي تبدأ في موضع لا تحبس فيه.

هكذا الوحي دائماً:

ينزل في قلب واحد، ثم يريد أن يصل إلى القلوب.

ينزل على رسول في مكة، ثم يمتد في الجهات.

ينطلق في لحظة من التاريخ، ثم يبقى حياً بعد انقضاء اللحظة.

إن الجغرافيا هنا ليست سجنًا للوحي، بل نقطة انطلاق.

ثم يأتي الهدف الذي يقلب ميزان الحياة كلها:

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾.

ما أبلغ هذا الاسم:

يوم الجمع.

الإنسان في الدنيا يعيش التفرق.

هذا في قصره.

وهذا في كوخه.

هذا مشهور.

وهذا لا يعرفه أحد.
هذا ملك.
وهذا مملوك.
هذا غني.
وهذا فقير.
هذا مضى قبل قرون.
وهذا لم يولد بعد.
لكن كل تلك الفواصل التي تبدو ضخمة في الدنيا ستسقط في يوم واحد:
يوم الجمع.
سيجمع الله الأولين والآخرين.
الظالم والمظلوم.
السيد والخادم.
المتكبر ومن كان يحترقه.
الذي نسي ذنبه والذي حمل جرحه دهوراً.
كلهم سيخرجون من طرق التاريخ المختلفة إلى ساحة واحدة.
ولذلك لا تقول السورة: يوم القيامة فقط، بل تختار هنا اسماً يناسب المعنى الذي تبنيه:
﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.
كأنها تقول للإنسان:
أنت الآن تستطيع أن تنواري.
أن تختار مجلسك.
أن تحيط نفسك بمن يصفقون لك.
أن تختبئ خلف المال والسلطان والاسم والنسب.
لكن يوماً سيأتي لا تستطيع أن تنفرد فيه بمكان يخصك.
ستكون واحداً من الجمع.
بلا حجاب.
بلا رتبة.
بلا حصانة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

لا مكان للاحتمال.

ولا للتخمين.

ولا لفكرة: لعل.

إنه يقين.

وهنا تظهر إحدى خصائص القرآن العجبية: أنه يتحدث عن المستقبل الأبعد كما لو أنه واقع حاضر.

لأن ما ننتظره نحن، معلوم عند الله.

وما نسميه غيباً، ليس غيباً على الله.

ثم تُختصر نهاية البشرية كلها في مشهد شديد الإيجاز:

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

كلمات قليلة، لكن خلفها أعمار كاملة.

اختيارات.

مواقف.

صلوات.

معاصٍ.

دموع.

ظلم.

توبة.

عفو.

عناد.

إنفاق.

كبر.

خشوع.

ثم تأتي اللحظة التي تنتهي فيها كثرة التفاصيل إلى نتيجتين.

فريق في الجنة.

وفريق في السعير.

ما أضيق النهاية بعد اتساع الطرق!

الحياة معقدة جداً في أعيننا.

الناس مذاهب وطبقات وأسماء وأعراق وجماعات وشعارات.

لكن القرآن حين يضع الجميع أمام المصير يختصر المشهد:

هناك في النهاية فريقان.

وهذا الاختصار يهز الإنسان؛ لأنه يرده من فوضى التصنيفات الأرضية إلى السؤال

الحقيقي:

في أي الفريقين أريد أن أكون؟

كم من جدل ينتهي هنا.

وكم من غرور يسقط.

وكم من معركة دنيوية تبدو فجأة صغيرة حين تقاس بهذا المصير.

ثم تأتي الآية التالية لتفتح باباً من أدق أبواب الاعتقاد في الهداية والاختيار:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الله قادر أن يجعل البشر أمة واحدة.

قادر أن ينزع منهم الاختلاف.

قادر أن يجعل الجميع يسرون في اتجاه واحد.

لكنه شاء لحكمة أن تكون هذه الدنيا دار ابتلاء.

دار اختيار.

دار تمييز.

ولهذا فوجود الاختلاف لا يعني عجز الحقيقة عن أن تكون حقيقة.

والكثرة ليست دائماً دليلاً.

والاتفاق البشري ليس شرطاً لصحة الحق.

كم من إنسان يضطرب إذا رأى الناس مختلفين!

يسأل:

لو كان الحق واضحاً فلماذا لم يؤمن به الجميع؟

والقرآن يجيبه هنا:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

فإن الله لم يجعل هذه الدنيا موضع اضطرار إلى الإيمان.
بل جعل فيها من الآيات والبينات ما تقوم به الحجّة، ثم جعل للإنسان مجالاً يكشف فيه اختياره حقيقة قلبه.

ولهذا جاءت كلمة الرحمة:

﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

الهداية ليست مجرد عبقرية عقلية.

ولست ثمرة ذكاء محض.

كم من شديد الذكاء مجب عن أبسط الحقائق!

وكم من قلب بسيط عرف الطريق لأن الله فتح فيه نافذة النور.

إن أعظم ما يحتاجه الإنسان ليس أن يزداد ذكاء فقط، بل أن تدركه الرحمة.
أن يريد الله به خيراً.

أن يلين قلبه.

أن يريه الحق حقاً.

أن يمنحه القدرة على الاستجابة له.

ولذلك كان المؤمن لا يعجب بهديته كما يعجب المرء بإنجاز شخصي خالص، بل يرى فيها فضلاً سبق سعيه، ورحمةً أحاطت به.

ثم في مقابل الرحمة:

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

عاد لفظ الولي.

وقد مر بنا قبل قليل:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

ها هو القرآن يكشف المأساة كاملة.

في الدنيا اتخذوا أولياء من دون الله.

وفي الآخرة:

﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

تلك الروابط التي توهموا أنها حصن، تنهار حين يحتاجون إليها حقاً.

وهذه من أشد الخسارات:

أن تمضي عمرك متكاً على شيء، ثم تكتشف عند السقوط أنه لم يكن جداراً أصلاً.

ولهذا يكرر القرآن السؤال في الآية التالية:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

اقرأها بقلب محتاج:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

ليس المقصود مجرد تقرير عقدي بارد.

إنها جملة قادرة أن تسند إنساناً كاملاً.

الله هو الولي.

حين لا يفهمك أحد.

الله هو الولي.

حين تنفض الأيدي من حولك.

الله هو الولي.

حين تصبح الأسباب أضعف من حاجتك.

الله هو الولي.

حين تخشى الغد ولا تملك مفاتيحه.

الله هو الولي.

والولي ليس اسماً بعيداً.

إنه معنى القرب، والرعاية، والنصرة، والتدبير، والحفظ.

ما الذي يحتاجه القلب أكثر من أن يعرف أن له ولياً لا يموت، ولا يعجز، ولا ينسى، ولا

تغيب عنه تفاصيله؟

ثم ثبت الآية قدرته بدليل يهدم أعظم مستحيل في حس الإنسان:

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

إذا كان يحيي الموتى، فما الذي يستعصي عليه من شأنك؟

هذه طريقة القرآن في إصلاح الخوف.

لا يقول لك فقط: لا تخف.

بل يعرفك بمن تتوكل عليه.

فالطمانينة القرآنية ليست تخديراً نفسياً.

إنها ثمرة معرفة.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هنا تتساقط كلمة "مستحيل" من داخل القلب.

ليس معنى ذلك أن كل ما يريده الإنسان سيقع كما يشتهي؛ ولكن معناه أن قدرة الله لا يقف أمامها ما يقف أمام قدرتك أنت.

وأن ما استحال عليك ليس مستحيلاً على ربك.

ثم تنتقل السورة فجأة من حديث الولاية والمصير إلى سؤال الاختلاف البشري:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

وهنا نصل إلى أصل آخر من أصول السورة.

إذا كان الوحي من الله...

وإذا كان الملك لله...

وإذا كان الله هو الولي...

فإلى من نرد الاختلاف؟

﴿حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

وهذه الجملة تقطع جذراً عميقاً من جذور التيه الإنساني.

فالإنسان لا يكتفي أحياناً بأن يخطئ، بل يريد أن يجعل نفسه الميزان الأخير للصواب والخطأ.

يأخذ رغبته، أو زمانه، أو مجتمعه، أو شهوته، أو ثقافته، ثم يجعلها المحكمة التي يحاكم إليها الوحي.

لكن السورة تقلب المعادلة:

الوحي هو الذي يحاكم، لا الذي يُحاكم.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

هذه هي ثمرة المطع.

فما دام:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾

فلا عجب أن يكون:

﴿حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

الوحي ليس زينة روحية نضعها بجانب بقية المرجعيات.

إنه المرجع الذي يعيد ترتيب المرجعيات.

وهنا يلتفت الخطاب إلى إعلان بالغ القرب والحميمية:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

لاحظ انتقال النبوة.

من القضية العامة:

﴿حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾

إلى الاعتراف الشخصي:

﴿اللَّهُ رَبِّي﴾.

كأن الحقيقة لا تكفي أن تعرفها في الخارج.

يجب أن تصبح اعترافاً في الداخل.

ليس فقط:

اللَّهُ رب العالمين.

بل:

اللَّهُ ربي.

وليست القضية أن الله قادر فحسب.

بل:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

وليست القضية أن إليه المرجع يوم القيامة فقط.

بل:

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وهنا يجتمع في قلب المؤمن خطان:

التوكل للمستقبل.

والإنابة في الطريق.

التوكل: أن تسلم أمرك إليه فيما أمامك.

والإنابة: أن تعود إليه كلما شردت، أو أذنت، أو ضل بك الطريق.

فالمؤمن يسير إلى الله بين اعتماد وعودة.

يعتمد عليه.

ويعود إليه.

ثم تعود السورة إلى الكون مرة أخرى، ولكن هذه المرة لا لتصف ملك الله فقط، بل لتريك آثار قدرته في أصل الخلق:

﴿فَاطَرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾.

فاطر السماوات والأرض.

أي الذي ابتداءً هذا البناء الهائل.

السماوات التي لا يبلغها طرفك.

الأرض التي تحملك.

المسافات.

الجيال.

البحار.

كل هذا خرج إلى الوجود بأمره.

ثم، وسط هذا الاتساع الكوني، تذكر السورة شيئاً شديداً القرب من الإنسان:

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

من السماوات إلى البيوت.

من خلق الكون إلى دفء العلاقة الإنسانية.

وهذا من جمال النظر القرآني:

الله الذي فطر السماء هو الذي جعل لك زوجاً.

لا شيء في حياتك اليومية خارج عن ربوبيته.

البيت ليس شأنًا منفصلاً عن الكون.

والعاطفة ليست خارج الخلق.

والنسل ليس حدثاً بيولوجياً مجرداً.

إنها كلها واقعة داخل تدبير الخالق.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾.

الحياة تستمر.
 الأنواع تنتشر.
 الأجيال تتعاقب.
 وأنت ترى المواليد كل يوم حتى تكاد تنسى عظمة السر:
 من أين جاءت الحياة؟
 كيف يخرج حي من حي؟
 كيف يستمر النوع؟
 كيف تنتقل الصفات؟
 كيف يتكون جسد كامل من أصل صغير لا يكاد يُرى؟
 الاعتياد يحجب العجب.
 والقرآن يزيل غبار الاعتياد عن الأشياء.
 ثم تأتي الآية التي تقف عندها اللغة خاشعة:
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
 بعد الحديث عن الله.
 عن ولايته.
 عن قدرته.
 عن خلقه السماوات والأرض.
 عن الأزواج.
 عن تدبير الحياة.
 قد تسلسل إلى الذهن تصورات المخلوقين.
 فيأتي التنزيه قاطعاً:
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
 أي باب أعظم لحفظ القلب من الوهم من هذه الآية؟
 كل ما خطر ببالك فالله أعظم.
 لا يُقاس بخلقه.
 ولا يشبهه شيء.
 ولا تحيط به صورة ذهنية.

ولا تُنَزَّل صفاته على مقاييس المخلوقين.

له الكمال الذي يليق به، مع تنزيهه عن مماثلة خلقه.

وهذا ليس نفيًا باردًا، بل تنزيه يفتح باب التعظيم.

لأنك كلما نزهته عن مشابهة الخلق، اتسع في قلبك معنى جلاله.

ثم بعد التنزيه يأتي الإثبات:

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ما أبدع التوازن.

لا يشبه شيء، ومع ذلك هو سميع بصير.

فالتنزيه لا يعني نفي الصفات.

والإثبات لا يعني التشبيه.

بل ثبت ما أثبتته لنفسه، على الوجه اللائق بجلاله، دون تمثيل ولا تكييف.

وهذه الآية وحدها ميزان من أصفى موازين المعرفة بالله:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تنزيه.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثبات.

جلال بلا تعطيل.

ومعرفة بلا تشبيه.

ثم تختم هذه الوحدة من السورة بصورة الملك الكامل:

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

له مقاليد السماوات والأرض.

كلمة ﴿مَقَالِيدُ﴾ ترسم في النفس صورة المفاتيح الجامعة.

كأن أبواب الكون كلها، وأقداره كلها، وأرزاقه كلها، ومساراته كلها، ليست سائبة ولا

موزعة بين قوى متصارعة.

المفاتيح كلها بيده سبحانه.

وهنا يدخل الرزق.

وما أسرع قلق الإنسان حين يصل الكلام إلى الرزق!

لأن الرزق يمس ضعفه المباشر.

طعامه.

بيته.

أولاده.

مستقبله.

عمله.

مكاته.

ولكن السورة تعيده إلى أصل المسألة:

﴿يَسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

مرة يوسع.

ومرة يضيق.

وليس كل بسط إكراماً محضاً.

ولا كل تضيق إهانة.

فوراء التقادير علم لا تملكه نحن.

ولهذا ختمت الآية:

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أنت تنظر إلى رزقك من نقطة واحدة: حاجتك الآن.

أما الله فيعلم قصتك كلها.

يعلم ما يصلحك.

وما يفسدك.

وما تحمل.

وما لا تحمل.

وما يكون بعد عام.

وما يكون بعد عشرين عاماً.

وما خفي عنك في نفسك.

ولهذا حين يضيق الرزق على المؤمن لا يعني ذلك أن الله نسيه.

فالأية نفسها التي تقول:

﴿وَيَقْدِرُ﴾

تقول بعدها:

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

كأنها تعالج الوسوسة قبل أن تنشأ:

لماذا ضيق علي؟

ألم يرني؟

ألم يعلم حاجتي؟

بلى.

إنه بكل شيء عليم.

وهكذا تنتهي هذه المحطة وقد نقلتنا السورة في مسافة قصيرة بين أعظم الأسئلة التي تؤرق

الإنسان:

إلى أين نمضي؟

﴿يَوْمَ اجْتَمَعُ﴾.

من هو الولي؟

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

إلى من نرد اختلافنا؟

﴿خُذْكُمْ إِلَى اللَّهِ﴾.

على من نعتمد؟

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

إلى من نرجع؟

﴿وَالِيَهُ أُنِيبُ﴾.

من خلق الوجود؟

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

كيف نعرفه دون أن نشبهه بخلقه؟

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

من يملك مفاتيح الأرزاق؟

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهكذا شيئاً فشيئاً تبني سورة الشورى في قلبك مركزاً واحداً.

بدل أن يتوزع بين عشرات المراكز.

الله هو مصدر الوحي.

وهو الولي.

وهو الحكم.

وهو الخالق.

وهو الرازق.

وهو المرجع.

فإذا استقام هذا المركز في القلب، بدأت بقية الحياة تستقيم حوله.

وستأتي المحطة التالية لدخولنا إلى قلب قضية السورة نفسها:

لماذا جاءت الرسائل بدين واحد، ثم تفرق الناس فيه؟

وهناك سنقف أمام الآية التي تحمل أحد أثقل أوامر الوحي:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

وسنرى كيف تنتقل السورة من وحدة المصدر إلى وحدة الطريق، ومن الوحي إلى إقامة

الدين، ومن الاختلاف إلى الميزان الذي يحسمه.

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾: حين يكون الوحي طريقاً يجمع القلوب لا رايةً تمزقها الأهواء

ها نحن نصل إلى قلب السورة.

إلى الموضع الذي تأخذ فيه كلمة الشورى معناها الأوسع؛ لا بوصفها إجراءً سياسياً فحسب، بل بوصفها ثمرةً من ثمار مجتمع اجتمع أولاً على مرجعية واحدة، وعلى وحي واحد، وعلى دين واحد.

فلا شورى حقيقية بين قلوب تمزقها الأهواء، ولا اجتماع مستقر لأمة لم تعرف ما الذي يجمعها.

ولهذا يأتي هذا الأصل قبل أن تأتي آية الشورى نفسها.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

ما أوسع هذه الآية!

إنها تجمع مسيرة النبوات الكبرى في سطر واحد.

نوح.

وإبراهيم.

وموسى.

وعيسى.

ومحمد ﷺ.

أسماء تفصل بينها القرون، والبلاد، واللغات، والأقوام، لكنها تلتقي في نبع واحد.

كأن السورة تمد خيطاً نورانياً عبر التاريخ كله، وتقول:

لم يكن الأنبياء جزءاً منفصلة.

لم يكن لكل واحد منهم إله، ولا حقيقة، ولا غاية مستقلة.

إنما اختلفت تفاصيل الشرائع بحسب الأزمنة والأقوام، أما أصل الدين، وأصل العبودية،

وأصل التوحيد، وأصل الاستسلام لله، فواحد.

وهنا تخرج السورة بالمسلم من ضيق اللحظة إلى سعة التاريخ.

فأنت لا تنتمي إلى لحظة منفصلة.

حين تقيم الدين، فأنت تسير في الطريق نفسه الذي سار فيه نوح في مواجهة الطوفان، وإبراهيم في مواجهة الأصنام، وموسى في مواجهة فرعون، وعيسى في مواجهة انحراف بني إسرائيل، ومحمد ﷺ في مواجهة جاهلية مكة. إنها قافلة واحدة.

وأنت، حين تستقيم على دين الله، لست فرداً معزولاً في القرن الذي تعيش فيه؛ بل حلقة صغيرة في سلسلة طويلة من العبودية تمتد منذ فجر الرسالات. ثم تأمل اختيار الأفعال:

﴿شَرَعَ لَكُمُ﴾
﴿وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾
﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾
﴿وَصَيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾.

شرع.

وصى.

أوحى.

وصى.

كلها كلمات تُخرج الدين من أن يكون اختراعاً بشرياً.

الدين لا تصنعه المجتمعات كما تصنع عاداتها.

ولا تحدد حقائقه صناديق الاقتراع.

ولا تكتبه الثقافة الغالبة بحسب مزاج العصر.

ولا يصير الحق فيه باطلاً لأن الناس نفروا منه، ولا الباطل حقاً لأن الناس ألفوه.

إنه شرع.

والشارع هو الله.

وهذه إحدى أعمق معاني التحرر في القرآن:

أن يتحرر الإنسان من عبودية الإنسان حين يعرف أن مرجعه الأعلى ليس بشراً مثله.

ثم يأتي الأمر العظيم:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾.

لم يقل: اعرفوا الدين.

ولم يقل: تحدثوا عن الدين.

ولم يقل: انتسبوا إليه.

قال:

أقيموا.

والإقامة أبلغ من مجرد المعرفة.

أن تقيم الشيء يعني أن تجعله قائماً.

ظاهراً.

ثابتاً.

حاضراً في الحياة.

فالدين في القرآن ليس فكرة تحفظها الذاكرة ثم تُترك الحياة لتتحرك خارجها.

إنه معنى يريد أن يقوم.

يقوم في القلب عقيدة.

وفي العبادة خشوعاً.

وفي الأخلاق صدقاً.

وفي المال أمانة.

وفي القوة عدلاً.

وفي الخصومة تقوى.

وفي الأسرة رحمة.

وفي المجتمع تعاوناً.

وفي القرار شورى.

وفي المصيبة صبراً.

وفي النعمة شكراً.

إن الدين إذا بقي في الكلام ولم يقم في السلوك، فقد بقي منه الاسم وسقطت الإقامة.

ولعل هذا هو سر ثقل العبارة:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾.

فهي لا تطلب منك أن تحمل الدين في كتابك فقط، بل أن تحمل الكتاب إلى حياتك.

أن يتحول الوحي من نص مقروء إلى هيئة وجود.

ومن معنى في الذهن إلى خلق في الجوارح.
ومن اعتقاد داخلي إلى أثر خارجي.
ثم يأتي النبي ملاصقاً للأمر:
﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.
كأن إقامة الدين والتفرق فيه ضدان.
كلما قامت حقيقة الدين في القلوب على وجهها الصحيح، صار فيها ما يجمعها.
وكلما غلبت عليها الأهواء، صارت النصوص نفسها مادة للنزاع.
ويا لها من مأساة متكررة:
أن ينزل الوحي ليجمع الناس على الله، فيجعل بعض الناس من الوحي نفسه ساحة لصراع النفوس.
ينتصر لنفسه باسم الحق.
ويغضب لحزبه باسم الدين.
ويحمل النص خصومته الشخصية.
ويجعل من مسائل الاجتهاد جسوراً للتباغض.
ثم يظن أنه يحمي الدين.
والقرآن يقول:
﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.
إن التفرق ليس مجرد اختلاف في الرأي.
فالاختلاف قد يقع بين أهل الحق أنفسهم، وقد يظل القلوب متآلفة.
لكن التفرق هو أن يتحول الاختلاف إلى تمزق.
أن تصبح الجماعة أحب من الحقيقة.
والاسم أحب من المعنى.
والانتصار للنفس أحب من الرجوع إلى الحق.
أن يتضخم الجزء حتى يبتلع الكل.
ومن هنا نفهم أن وحدة الأمة ليست شعاراً عاطفياً.
إنها ثمرة من ثمار إقامة الدين.

ولا يمكن أن تُبنى وحدة حقيقية على مجاملة الباطل؛ لكنها أيضاً لا تُبنى على نفس متعطشة للخصومة.

بل على قلوب تعرف أن لها رباً واحداً، وكتاباً واحداً، وقبلة واحدة، ومصيراً واحداً.
ثم تكشف الآية عن حقيقة أخرى:
﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.
سبحان الله.

إلى ماذا تدعوهم؟

إلى الله.

إلى توحيده.

إلى الخروج من عبودية الأصنام.

إلى تحرير القلب من التعلق بالخلق.

إلى معنى يبدو، في ميزان العقل الصافي، رحمةً محضة.

ومع ذلك:

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهنا نتعلم أن الحق قد يكون واضحاً، لكنه ليس دائماً خفيفاً على النفس.

المشكلة ليست دائماً في غياب الدليل.

أحياناً يكون الدليل حاضراً، لكن الهوى أثقل.

فالإنسان لا يرفض الحقيقة لأنه لم يفهمها دائماً.

قد يرفضها لأنه فهمها جيداً، وأدرك أنها ستطلب منه أن يتغير.

والنفس تخاف أحياناً من الحق لا لأنه غامض، بل لأنه واضح أكثر مما تريد.

لأن التوحيد يعني سقوط أصنام كثيرة.

وليس كل صنم حجراً.

قد يكون الصنم منصباً.

أو شهرة.

أو جماعة.

أو عادة.

أو هوى.

أو تصوراً عن الذات يصعب التخلي عنه.
ولهذا:

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.
لأن التوحيد لا يطلب من الإنسان كلمة فقط.
إنه يطلب إعادة ترتيب القلب كله.

ثم تأتي نسمة رحمة في وسط هذا الثقل:
﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.
ما أجمل هذا الاقتران:

يجتبي.

ويهدي.

لكن الهداية هنا متصلة بالإنيابة:

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

كأن في الآية سرّاً من أسرار الطريق:

الذي يريد الهداية لا يكفي أن يكون ذكياً.
بل يحتاج أن يكون راجعاً.
منيباً.

قلبه لا يقف في وجه الحق بعناد.

إذا بان له رجع.

إذا أذنب تاب.

إذا شرد عاد.

إذا أخطأ لم يجعل كرامته مانعاً من الاعتراف.

فالإنيابة ليست حركة قدم.

إنها انحناء قلب.

وكم بين قلب يبحث عن الحق ليخضع له، وقلب يبحث في الحق عما يؤيد ما اختاره سلفاً!
الأول يهدي.

والثاني قد يطوف طويلاً حول نفسه.

ثم تشرح السورة أصل التفرق:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ .
هذه آية من نزلة.

كما ربما نطن أن التفرق ثمره الجهل دائماً.

لكن القرآن يقول:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ .

إذن ليس العلم وحده ضماناً.

قد يعرف الإنسان ثم يبغى.

وقد يحفظ النصوص ثم يطلب بها العلو.

وقد يمتلك الحجة ثم يستخدمها كسلاح لجرح الناس لا لهدايتهم.

وقد يصبح العلم نفسه خادماً لكبرياء النفس.

وهنا تظهر كلمة واحدة تكشف الداء:

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ .

البغي.

ليس نقص المعلومات.

بل فساد الإرادة.

أن تريد أن تعلو.

أن تنتصر لنفسك.

أن تتجاوز الحد.

أن تحول الحق إلى أداة هيمنة.

وهذه من أخطر أمراض المتدينين والمتعلمين:

أن تنسع المعرفة ويبقى القلب ضيقاً.

أن تمتلئ المكتبة ويظل الكبر ساكناً في الداخل.

أن يتقن الإنسان صناعة الحجة، لكنه لا يتقن صناعة التواضع.

وقد يكون الجهل أحياناً أهون علاجاً من علم استولى عليه الهوى؛ لأن الجاهل يمكن أن

يتعلم، أما من ظن أن معرفته تمنحه الحق في البغي، فقد صار عليه نفسه حجاباً.

ثم تقول الآية:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ .

حتى تأخر العقوبة ليس غفلة.
 إنما هو جزء من التدبير.
 فالله لا يعجل بعجلة البشر.
 وله أجل.
 وله حكمة.
 وله كلمة سبقت.
 وهذا يعيد المؤمن مرة أخرى إلى الإيمان بأن الزمن نفسه تحت سلطان الله.
 كم تتعجل نحن الحسم!
 نريد أن نرى الظالم يسقط اليوم.
 والمبطل ينكشف غداً.
 والحق ينتصر في اللحظة التي نحددها.
 لكن الله لا يعمل داخل استعجالنا.
 ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
 الأجل مسمى.
 ليس متروكاً.
 ولا مجهولاً عند الله.
 التأخير ليس إهمالاً.
 والإمهال ليس عجزاً.
 والتأخير ليس خارج التدبير.
 ثم تنتقل السورة إلى جيل آخر:
 ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ شَكَّ مِنْهُ مَرْيِبٌ﴾.
 وهنا ترى كيف تنتقل الأزمان عبر الأجيال.
 إذا فسد الجيل الأول بالبغي، فقد يورث الجيل الذي بعده الشك.
 فبدأ المشكلة هوى عند قوم، ثم تصبح حيرة عند أحفادهم.
 وهذه سنة خطيرة في الأفكار:
 الانحراف لا يبقى محصوراً في صاحبه.

قد يترك وراءه أسئلة مشوشة، ومناهج مضطربة، وذاكرة ممزقة، فيأتي من بعده قوم لا يعرفون أصل النزاع، لكنهم يعيشون نتائجه.
ولهذا كانت مسؤولية العالم والمفكر والمربي هائلة.
فهو لا يكتب لجيله وحده.

قد يورث يقيناً.

وقد يورث شكاً.

قد يفتح طريقاً.

وقد يترك في الطريق ضباباً يسير فيه أناس لم يولدوا بعد.

ثم، في وسط مشهد التفرق والشك، يأتي الأمر للنبي ﷺ:
﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

يا لقوة العبارة:

﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾.

الدعوة وحدها لا تكفي.

لا بد أن يقف الداعي هو نفسه في الطريق الذي يدعو إليه.

كم تضعف الكلمة حين يكذبها صاحبها!

وكم تقوى العبارة البسيطة حين تراها متجسدة في حياة قائلها!

لهذا لم يقل:

فادع فقط.

قال:

﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾.

ادعهم بلسانك.

وادعهم بحياتك.

ادعهم إلى الصدق، وكن صادقاً.

إلى العدل، وكن عادلاً.

إلى الإخلاص، ولا تجعل دعوتك سلباً لنفسك.

إلى الله، ولا تحولهم من عبودية أهوائهم إلى عبودية شخصك.

ثم:

﴿كَأُمرْتُ﴾.

لا كما تحب.

ولا كما يصفق الناس.

ولا كما يحقق الانتشار الأسرع.

ولا كما تتطلب أذواق الجمهور.

كما أمرت.

وهذه الكلمة ثقيلة على كل من حمل رسالة.

لأن الإنسان يميل إلى تعديل الحق ليصير أكثر قبولاً.

يخفف هنا.

ويجامل هناك.

وبصمت عن موضع لأن خسارته مكلفة.

لكن الاستقامة ليست صناعة نسخة من الدين تناسب رغبات السوق.

هي:

﴿كَأُمرْتُ﴾.

ثم يأتي الحاجز الذي يحفظ الاستقامة:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الهوى أخطر من الاعتراض الصريح أحياناً.

لأنه لا يأتي دائماً بوجه عدو.

قد يأتي متأنقاً.

يقول للداعية: كن واقعياً.

ويقول للعالم: لا تخسر جمهورك.

ويقول للمفكر: قل ما يحب الناس.

ويقول لصاحب الموقف: ليس الوقت مناسباً.

ثم خطوة بعد خطوة يتحول الوحي من قائد إلى تابع.

ولهذا جاءت الآية صارمة:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

ثم يأمره أن يعلن أصلاً جامعاً:

﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾.

ما أجمل هذا الاتساع!

ليس إيماناً انتقائياً.

لا أقبل من الوحي ما يوافقني وأرد ما لا يوافقني.

ولا أؤمن بنبي وأكفر بآخر.

بل:

﴿آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾.

إنه قلب مؤمن بتاريخ الوحي كله.

ثم تأتي إحدى أجمل الجمل في بناء المجتمع:

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

بعد الإيمان مباشرة:

العدل.

وكان العقيدة إذا صحت لا تبقى محبوسة في الضمير، بل تنزل إلى العلاقات.

إيمان لا ينتج عدلاً مع الناس ناقص الأثر.

والعدل هنا لا يقال للأصدقاء فقط.

بل:

﴿بَيْنَكُمُ﴾.

أي حتى مع المختلف.

حتى مع الخصم.

حتى مع من رد الدعوة.

فالحق لا يعطيك إذناً أن تظلم من خالفك.

بل ربما كان من امتحان إيمانك أن تقدر على الإنصاف في لحظة الخصومة.

ثم تأتي الجملة التي تهدئ نار الجدل:

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي سكونية في هذا الخطاب!

لا صراخ.

لا تشنج.

لا خوف من المختلف.

الحقيقة واضحة.

والمسؤولية فردية.

والمصير إلى الله.

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

كل إنسان يحمل صحيفته.

لن تنفعني حرارة خصومي إن كان عملي فاسداً.

ولن يضرني باطل غيري إن ثبت قلبي على الحق.

ثم:

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

عاد الجمع.

في بداية المحطة السابقة:

﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.

وهنا:

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

كأن السورة ترفض أن تجعل الخصومة البشرية هي الكلمة الأخيرة.

نختلف الآن.

نحتج.

نتجادل.

لكننا جميعاً نسير إلى موعد واحد.

وسيقف الخصمان معاً بين يدي من يعرف السر وأخفى.

وهذا الوعي بالآخرة يهذب الخصومة.

فالإنسان حين يظن أن المحكمة الأخيرة هي أصوات الناس، يستमित ليكسبهم بأي وسيلة.

لكن حين يعلم أن:

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾

يتحرر من شيء من هذا الهوس.

يقول الحق.

يعدل.

ويعضي.

لأن الحكم النهائي ليس له.

ثم تحذر السورة من الذين يحاجون في الله بعد ظهور الحق:
﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حَتَّىٰ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

هناك جدال يبحث عن الحقيقة.

وهناك جدال يريد أن يهرب منها.

والقرآن يفرق بينهما.

ليس كل سؤال مذموماً.

ولا كل مناظرة باطلة.

لكن المشكلة حين تظهر البيّنات، ثم يتحول الجدل إلى حيلة للمقاومة.

إلى حركة لسان بعد أن رفض القلب التسليم.

عندها:

﴿حَتَّىٰ دَاخِضَةً﴾.

والدحض صورة للسقوط والانزلاق.

حجة يظن صاحبها أنها ثابتة، فإذا هي لا تحمل وزنها.

وهكذا كثير من الباطل:

يبدو ضخماً تحت أضواء الخطابة.

لكنه أمام ميزان الحق لا يزن شيئاً.

ثم تعود السورة إلى أصلها العظيم:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾.

الكتاب.

والميزان.

كلمتان تختصران بناء أمة.

الكتاب يُعرَف الحق.

والميزان يُقام العدل.

فلا يكفي أن تكون عندك نصوص إذا ضاع الميزان.
ولا يكفي أن تتحدث عن العدالة إذا فقدت الكتاب الذي يعرفك ما العدل أصلاً.
إن الوحي يعطي الإنسان الحقيقة، والميزان يمنعه من أن يستخدم الحقيقة بظلم.
وهذا من أعظم التناسق في السورة.

بدأت بالوحي:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾.

ثم انتهى بنا الطريق هنا إلى:

﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾.

فالوحي ليس مجرد نور روحي.

إنه أيضاً ميزان حياة.

به تزن الأفكار.

وتزن الأعمال.

وتزن المواقف.

وتزن نفسك قبل أن تزن الآخرين.

ثم، فجأة، تنقلنا الآية إلى الساعة:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

لماذا الساعة هنا؟

لأن كل الكلام السابق قد يتحول إلى تنطير إذا نسي الإنسان أن أمامه موعداً.

الكتاب.

الميزان.

العدل.

الاستقامة.

نبذ الهوى.

كل ذلك ليس تمريناً فكرياً.

هناك ساعة تقترب.

وهذا وحده يجعل كل كلمة أكثر جدية.

﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

الإنسان يتعامل مع الموت والقيامة كما لو كانا دائماً بعيدين.

لكن القرآن يسحب من يده ضمان الزمن.

من قال إن الطريق طويل؟

من قال إن لديك عشرين عاماً أخرى؟

من قال إن فرصة التوبة ستظل مفتوحة بالصورة التي تتخيلها؟

القرب هنا لا يراد منه أن تحسب المسافة، بل أن تعيش مستعداً.

ثم تصور السورة فريقيْن أمام الساعة:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾.

الكافر يستهزئ:

متى؟

أين؟

هاتوا ما تعدوننا به.

أما المؤمن:

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾.

ليس لأنه يشك.

بل لأنه يوقن.

واليقين الحقيقي بالآخرة لا يصنع قلباً بارداً.

بل يصنع خشية.

فالذي يعرف أن الحساب حق لا يتعامل مع ذنوبه بخفة.

لا يقول: أنا بخير لمجرد أنه أفضل من فلان.

لا يدخل الجنة في خياله قبل أن يرى صحيفته.

إنه يعمل ويرجو ويخاف.

ثم:

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ليس ضلالاً قريباً.

بل:

﴿بَعِيدٍ﴾.

لأن من نسي النهاية اختل عنده الطريق كله.
إذا أسقطت الآخرة من التصور، تغير معنى النجاح.

وتغير معنى الخسارة.

وتغير معنى التضحية.

وتغير معنى الظلم.

وتغير معنى الصبر.

وتغير معنى الزمن.

ولهذا ليست الآخرة فصلاً عقدياً ملحقاً بالدين.

إنها عدسة ترى بها الحياة نفسها.

ثم، بعد رهبة الساعة، تأتي آية كأنها يد لطيفة توضع على القلب:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

يا لهذا الانتقال!

من الساعة والحساب إلى:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾.

واللطف من أجمل الأبواب التي يدخل منها القلب إلى معرفة الله.

فليس كل تدبير الله صاحباً.

بعض عنايته تأتيك هادئة حتى لا تنتبه إليها إلا بعد سنوات.

باب أغلق فخرنت، ثم عرفت أن خلفه شراً.

شخص ابتعد، ثم اكتشفت أن ابتعاده نجاة.

أمنية تأخرت، فضججت أنت قبل أن تأتي.

بلاء أوجعك، لكنه أخرج من قلبك شيئاً كان سيهلكك.

طريق تعطل، فقادك التعطل نفسه إلى طريق آخر.

كم مرة لامسك لطف الله في هيئة شيء لم تفهمه أول الأمر؟

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾.

ولم تقل الآية: بالمؤمنين فقط في هذا الموضع.

بل:

﴿بِعِبَادِهِ﴾.

فانخلق كلهم يعيشون داخل آثار رحمته العامة.

يتنفس العاصي.

ويرزق الجاحد.

وتطلع الشمس على من شكره ومن كفر به.

ولكن لطف الهداية باب آخر، لا يعرف جماله إلا من ذاقه.

ثم:

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

عاد الرزق مرة أخرى.

كأن السورة تعرف أن هذه المنطقة من أكثر مناطق القلق في القلب.

ولذلك تكرر علاجها.

لكنها تضيف هذه المرة:

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

لطيف.

وقوي.

وهذا اقتران عجيب.

فنحن نعرف من البشر لطفًا ناتجًا عن ضعف.

وقوة تحف معها الرحمة.

أما الله سبحانه فلطيف لا عن عجز، وقوي لا عن قسوة.

قوته لا تمنع لطفه.

ولطفه لا ينقص من عزته.

وهكذا يبني القرآن معرفتك بالله من جهات متوازنة؛ حتى لا يطغى معنى على معنى.

ثم تأتي آية تكشف معيار الاستثمار الحقيقي للحياة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ

فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

الحَرْث.

يا لها من استعارة!

الحياة أرض.

وأياملك بذور.
وأعمالك حرث.
وأنت الآن تزرع.
لا يوجد يوم محايد.
كل كلمة بذرة.
كل نية بذرة.
كل صدقة.
كل ظلم.
كل صلاة في جوف الليل.
كل تنازل عن حق الله من أجل هوى عابر.
كل ذلك يدخل التربة.
ثم يأتي الحصاد.
لكن الناس يختلفون في الأرض التي يزرعون لأجلها.
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾.
هذا إنسان يعمل في الدنيا، لكن عينه تتجاوز الدنيا.
يتاجر.
ويكتب.
ويبني.
ويربي.
ويعمل.
لكن خلف كل ذلك سؤال:
ماذا يبقى لي عند الله؟
فهذا:
﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾.
الآخرة عجيبة.
تزرع قليلاً، فيأتيك الله بالزيادة.
ركعتان في ظلام.

دمة لا يعرفها أحد.
 كلمة صدق.
 صدقة صغيرة.
 عفو عند المقدرة.
 صبر لحظة الغضب.
 ثم تنمو البذرة في أرض لا ترى ما يجري تحت ترابها.
 أما الآخر:
 ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾.
 لاحظ أنه لم يقل: من يعمل للدنيا.
 فالعمل للدنيا من حيث عمارتها ليس مذموماً.
 إنما القضية في الإرادة العليا.
 ماذا يريد القلب من كل هذا؟
 إذا أصبحت الدنيا هي الحصاد النهائي، أعطي الإنسان منها ما كتب له، ثم وجد هناك فراغاً مرعباً:
 ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.
 وهنا تظهر المأساة كاملة:
 أن تنجح في أرض، ثم تكتشف أنك زرعت في الأرض الخطأ.
 أن تمتلئ يدك هنا، ثم تصل إلى هناك وليس فيهما شيء.
 أن يعرفك الناس، ثم لا يكون لك عند الله ذكر محمود.
 أن تملك الكثير، ثم لا تملك نصيباً.
 ولهذا فإن سؤال سورة الشورى ليس فقط:
 ماذا تعمل؟
 بل:
 لأي حصاد تزرع؟
 وهكذا تكون هذه المحطة قد جمعت لنا أصولاً ثقيلة من بناء السورة:
 دين واحد امتد عبر النبوات.
 وأمر بإقامته لا بمجرد الانتساب إليه.

ونهي عن التفرق فيه.
 وتحذير من البغي الذي يفسد العلم.
 وأمر بالدعوة والاستقامة.
 ورفض لاتباع الأهواء.
 وإيمان بالكتب كلها.
 وعدل مع الناس.
 ووعي بأن الله سيجمع المختلفين.
 وكتاب أنزل بالحق.
 وميزان يقيم العدل.
 وساعة تقترب.
 ولطف يحيط بالعباد.
 ثم حث لا يتوقف الإنسان عن بذره حتى آخر يوم في عمره.
 ومن هنا سنتنقل بنا السورة إلى منطقة أشد كشفًا للإنسان:
 من الذي يشرع؟ ومن الذي يملك أن يحلل ويحرم؟ وما الذي يحدث حين يطغى الرزق على القلب؟
 هناك سنقف أمام قوله تعالى:
 ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾،
 ثم سنرى لماذا لا ييسط الله الرزق لعباده جميعاً بغير حساب، وكيف يمكن للنعمة نفسها أن تتحول، إن غاب الميزان، إلى طريق للبغي.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾: حين يكشف الوحي خفايا السلطة والمال والبلاء

بعد أن رسمت السورة طريق الدين الواحد، وحذرت من التفرق والبغي، وأقامت في القلب ميزاناً يرد الاختلاف إلى الله، تنتقل الآن إلى سؤال شديد الخطورة: من يملك حق التشريع؟

من الذي يقول للإنسان: هذا طريق الله، وهذا ليس طريقه؟
ومن يملك أن يضيف إلى الدين ما لم يأذن به الله؟
إن السورة التي بدأت بالوحي لا يمكن أن تترك هذا السؤال معلقاً؛ لأن الإيمان بأن الله يوحي يستلزم الإيمان بأن الله وحده صاحب الحق الأعلى في أن يشرع لعباده.
ولهذا يأتي الاستفهام الذي يحمل في داخله الإنكار كله:
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾.
تأمل كلمة:

شرعوا.

فالمشكلة ليست مجرد خطأ فكري.

إنها أعمق من ذلك.

إنها محاولة نقل حق من حقوق الله إلى غير الله.
أن يصبح الإنسان تابعاً لمن يقرر له ما يقربه من الله دون إذن من الله.
أن تُصنع له طرق في الدين لم يفتحها الوحي.
أن تتحول الأهواء والعادات والمصالح إلى أوامر يكسوها أصحابها ثوب القداسة.
وهنا تبدو الصلة واضحة جداً بما سبق:
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾.

ثم:

﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ﴾.

الأولى تشريع الله.

والثانية تشريع الشركاء.

وكان القرآن يضع الطريقين جنباً إلى جنب حتى لا يختلطتا:

هناك دين شرعه الله.

وهناك ما يصنعه البشر ثم ينسبونه إلى الدين.

والفارق بينهما ليس صغيراً.

إنه الفارق بين العبودية لله والعبودية لما صنعه الإنسان.

فليس كل ما قيل باسم الدين من الدين.

ولا كل ما ورثه الناس صار مقدساً بمجرد طول الزمن.

ولا كل ما التف حوله جمهور صار حقاً.

السؤال القرآني الحاسم يظل قائماً:

هل أذن به الله؟

إن هذه الجملة وحدها كافية لتنظيف التدين من طبقات كثيرة قد يضيفها البشر عبر

العصور.

فالدين ليس ما اعتاده الناس.

الدين ما شرعه الله.

ثم تقول الآية:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ﴾.

مرة أخرى يعود معنى الإهمال.

لا تحسب أن تأخر الفصل يعني غياب الحكم.

هناك كلمة فصل.

وهناك يوم سترُال فيه كل المناطق الرمادية.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يلبس الباطل ثوب الحق.

أن يصنع له خطاباً.

أن يجمع حوله الأنصار.

أن يزينه بالمصطلحات.

لكن يوم الفصل لا تبقى الأسماء التي اخترعناها نحن.

تبقى حقائق الأشياء كما هي عند الله.

ثم:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبأخذنا القرآن مباشرة إلى مشهد ذلك اليوم:
﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

لاحظ:

﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾.

ليس العقاب شيئاً هبط عليهم بلا علاقة بأعمالهم.

إنهم يخافون من حصادهم.

وكان الآية تعيد إلينا صورة الحرث التي مرت قبل قليل.

كنت تزرع هناك.

وها أنت ترى هنا ما زرعت.

هناك:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾.

وهنا:

﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

الحياة إذن ليست سلسلة أيام تتقضي ثم تختفي.

كل يوم يرسل شيئاً إلى المستقبل.

كل موقف يبني شيئاً ينتظر.

قد تنسى الكلمة التي قلتها، لكنها لا تنسى.

قد تنسى الظلم الذي فعلته، لكنه لا يضيع.

قد تنسى معروفاً صغيراً صنعته، لكنه محفوظ.

إن الزمن في القرآن لا يأكل الأعمال.

إنما يحملها إلى موعدها.

ثم جاءت الكلمة المخيفة:

﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

ما كانوا يسخرون منه صار واقعاً.

وهذه من أشد لحظات الخسارة: أن يتحول ما كنت تعده وهماً إلى الحقيقة الوحيدة التي لا

تستطيع الفرار منها.

ثم يتقلب المشهد:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

من:

﴿مُشْفِقِينَ﴾

إلى:

﴿رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾.

ومن الخوف من الكسب إلى:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾.

يا لعظمة الفارق بين حصادين!

وهنا لا تقول السورة فقط: لهم الجنة.

بل تختار صورة:

﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾.

كأنك ترى السعة.

والخضرة.

والراحة.

والمكان الذي لا يهدده زوال.

ثم:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

كم عاش المؤمن في الدنيا وهو يترك أشياء يشتهيها لأن الله لا يحبها!

كم أغلق على نفسه باباً كان يستطيع فتحه!

كم ابتلع كلمة غضب!

كم رد مالأ حراماً!

كم قاوم رغبة!

كم صبر على ضيق!

ثم تأتي الآخرة لتقول له:

الآن...

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾.

كانت الدنيا دار تقييد للشهوة بالله.
فصارت الآخرة دار إطلاق للنعم بفضل الله.
ثم لم يقل:
ذلك هو الجزاء فقط.

بل:
﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.
لأن الجنة أكبر من ثمن أعمالنا.
الطاعة سبب.

لكن العطاء فضل.
والعبد مهما عمل لا يدخل على ربه دخول المستحق المتفضل على مولاه، بل دخول الفقير
الذي أحاطه فضل الله من أوله إلى آخره.
ثم تأتي واحدة من أرق آيات السورة:
﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
يبشر الله عباده.

ليس الدين كله تحذيراً.
وليس الطريق إلى الله طريق خوف مجرد.
هناك بشارة.
كأن الله يرسل إلى عباده وهم ما يزالون في تعب الطريق خبراً من آخره:
أكملوا.

هناك روضات.
هناك فضل كبير.
هناك ما تشاءون.
لا تنتظروا إلى وعاء الطريق وحدها.
انظروا إلى نهايته.

إن البشارة من أقوى ما يثبت القلب؛ لأنها تجعل المستقبل الموعود حاضراً في الوعي.
المؤمن قد يكون في غرفة صغيرة، أو في مرض، أو في فقر، أو في عزلة، أو في محنة، لكنه
يحمل في قلبه خبراً من الغيب:

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾.

ثم يأتي الخطاب للنبي ﷺ:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

لقد جاءهم بالوحي.

حمل أذى الدعوة.

واجه التكذيب.

أنذر وبشر.

ومع ذلك لا يقف في آخر الطريق طالباً مالاً ولا سلطاناً ولا مكافأة بشرية.

وهذا من علامات نقاء الرسالة:

أن لا يتحول الحق إلى تجارة.

ولا الدعوة إلى صناعة مكاسب شخصية.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ على أقوال معروفة، فلا نجزم هنا

بوجه واحد؛ ويكفي من سياق الآية أن الرسول ﷺ لا يجعل تبليغ الوحي سلعة ولا يطلب

على رسالته أجراً دنيوياً.

ثم تقول الآية:

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.

انظر مرة أخرى إلى معنى الزيادة.

قبل قليل:

﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾.

وهنا:

﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.

الله لا يعامل عبده بمنطق الحساب الجاف.

تأتي بالحسنة.

فيريدها حسناً.

وكان طريق الله مبني على التكثير.

أنت تبدأ بالقليل.

وهو يفتح لك أبواب الزيادة.

ولهذا ختمت الآية:
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

غفور لما نقص.

شكور لما حصل.

أي رب هذا الذي يغفر تقصيرك، ثم يشكر إحسانك؟

لا يضيع عنده القليل.

لا ينسى دمة.

لا يغفل عن معروف صنعته ولم يشكر عليه أحد.

قد تعمل عملاً لا يراه الناس أصلاً، لكنك عند الله لا تضيع.

وهذه واحدة من أعظم وسائل التحرر من أسر الجمهور:

أن تعرف أن لك رباً شكوراً.

إذا عرف قلبك هذا، خفت حاجتك إلى تصفيق البشر.

ثم ترد السورة على شبهة التكذيب:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

الافتراء على الله أعظم تهمة يمكن أن توجه إلى حامل الوحي.

لكن القرآن لا يدخل في ارتباك دفاعي.

بل يقول:

﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

إن صاحب هذا الوحي نفسه تحت سلطان الله.

ليس خارجاً عن ملكه.

ولو كان الأمر افتراءً لما كان الافتراء طريقاً يمكن أن يثبت به صاحبه على الله.

ثم:

﴿وَيُمِخُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.

هذه جملة تصلح أن يقف عندها كل خائف على الحق.

الباطل يُمحي.

قد يعلو.

قد يملك مناير.

قد يخيف.

قد يمتلك المال والسلاح والجمهور.

لكن في طبيعته شيء من الزوال؛ لأنه لا يستند إلى الحقيقة النهائية.

أما الحق:

﴿وَيُحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.

والتعبير نفسه مدهش.

الحق حق، ومع ذلك يُحقّه الله؛ أي يظهره، ويثبتّه، ويقيم حجته، وينصره على الوجه الذي يشاء وفي الوقت الذي يشاء.

فلا تجعل طول الطريق يشككك في طبيعة الطريق.

ولا تجعل انتفاش الباطل يقتنعك أنه صار حقاً.

كم من باطل ملأ عصره ضجيجاً، ثم لم يبق منه إلا سطر في كتاب التاريخ!

وكم من حقيقة بدت وحيدة، ثم صارت بعد موت أصحابها نوراً لأجيال!

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وهنا يعود القرآن من ساحات الجدل إلى القلب.

الله لا يعلم الكلام وحده.

يعلم ما خلف الكلام.

يعلم لماذا قلت.

ولماذا سكت.

ولماذا خاصمت.

ولماذا دافعت.

ولماذا أظهرت وجهاً وأخفيت آخر.

إن أخطر محكمة لبست محكمة اللسان، بل محكمة النية.

﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثم، وكأن ذكر خفايا الصدور قد يفتح في قلب المذنب خوفاً، تأتي الآية التالية على الفور:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

يا لجمال هذا الترتيب!

يعلم ما في الصدور.

ومع ذلك...

يقبل التوبة.

يعلم ما فعلت.

ومع ذلك...

يعفو عن السيئات.

ليس قبوله لتوبتك لأنه لم يكن يعلم قبح ما صنعت.

يعلمه كاملاً.

يعلم ذنبك من داخله.

يعلم النية التي سبقته.

والخطوات التي قادت إليه.

والأعذار الكاذبة التي قلّتها لنفسك.

ثم إذا رجعت إليه صادقاً:

يقبل التوبة.

وهنا لم يقل فقط: يغفر لمن تاب.

بل:

﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾.

كأن التوبة شيء تحمله بيد مرتجفة إلى باب الله، فيلقاه منك.

وأنت الذي عصيت.

وأنت الذي ابتعدت.

وأنت الذي أفسدت.

ثم تكون منك حركة واحدة صادقة إلى الله، فيفتح لك باب القبول.

يا له من رب!

الإنسان قد يذكرك بخطئك بعد عشرين عاماً.

وقد يقول إنه ساحك ثم تبقى في نبرة صوته بقية من الماضي.

أما الله فيفتح للذنوب باباً اسمه:

﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾.

والعفو أوسع من مجرد ستر العقوبة.

فيه معنى المحو والتجاوز.
 كأن أثراً كان على الصفحة ثم أزاله الله.
 ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يجعل اليأس ديناً موازياً للذنب.
 اليأس لا يصلح شيئاً.
 التوبة هي الطريق.
 ثم تقول الآية:
 ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.
 حتى وأنت تتوب يعلم توبتك.
 يعلم مجاهدتك.
 يعلم أنك تعود ثم تضعف ثم تعود.
 فلا تحسب أن محاولتك الخفية لا قيمة لها.
 إنه يعلم.
 ثم:
 ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.
 مرة ثالثة يظهر معنى الزيادة.
 زيادة في الحرث.
 زيادة في حسن الحسنة.
 زيادة من الفضل.
 وكأن السورة تريد أن تغيّر تصورك عن الله:
 أنت لا تتعامل مع رب يعطيك الحد الأدنى.
 بل مع رب له فضل.
 تأتبه بخطوة، فيفتح لك أبواباً لم تخطر لك.
 تدعوه بحاجتك، فيعطيك أحياناً ما طلبت، وأحياناً يعطيك شيئاً لم تعرف أنك تحتاجه أصلاً.
 والاستجابة ليست دائماً صورة واحدة.
 فنحن نحب أن نستجيب للدعاء بالطريقة التي رسمناها نحن.
 نحدد الشيء.

والوقت.

والطريقة.

ثم إذا لم يقع كما تخيلنا قلنا: أين الإجابة؟

لكن العبد لا يملك من مشهد القدر إلا مساحة ضيقة.

وقد تكون الإجابة في منع.

أو تأخير.

أو صرف شر.

أو تغيير قلبك بدل تغيير الظرف.

أو فتح باب لم تكن تدعو به.

ولهذا:

﴿وَزَيْدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾.

الفضل أوسع من الطلب.

ثم يأتي المقابل:

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فالرحمة لا تلغي العدل.

والفضل لا يلغي الحساب.

ثم ندخل إلى آية تكشف شيئاً مذهلاً في طبيعة النفس البشرية:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

هذه الآية تغير معنى الرزق كله.

نحن نظن غالباً أن الخير يعني المزيد.

المزيد من المال.

المزيد من القوة.

المزيد من الفرص.

المزيد من النفوذ.

لكن الله يقول:

ليس دائماً.

قد يكون الشيء الذي تطلب زيادته هو نفسه الشيء الذي لو زاد أفسدك.
﴿لَبَّغُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

ياضعف الإنسان!

قد يقاوم الفقر، فإذا أغني عجز عن مقاومة الغنى.
قد يكون متواضعاً لأنه لا يملك ما يتكبر به، فإذا فُتحت له الدنيا خرج من قلبه إنسان آخر لم يكن يعرفه.

وقد يظن أن المال سيحل مشكلاته، فإذا بالمال يصنع له مشكلات من نوع جديد.
وليس المعنى أن كل غني باغ، ولا أن الفقر فضيلة في ذاته؛ وإنما تكشف الآية أن الرزق نفسه امتحان، وأن تقديره واقع بعلم الله بحال العباد.
﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾.

بقدر.

هذه الكلمة تضع الطمأنينة في موضع القلق.
رزقك ليس سائلاً منفلاً من الحساب.
إنه مقدر.

قدره من يعلم ما يصلحك.

ولهذا:

﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

هو خبير بك، لا بنفسك الظاهرة فقط.

يعلم ماذا سيفعل بك الغنى قبل أن تصبح غنياً.

ويعلم ماذا سيفعل بك المنصب قبل أن تصل إليه.

ويعلم أي الأبواب إذا فُتحت عليك أضاعتك، وأيها إذا أغلقت حفظتك.

وقد تبكي على باب أغلقه الله، بينما يكون من أرق صور لطفه بك أنه أغلقه.

كم نحتاج أن نقرأ الحرمان أحياناً بهذه العين!

ليس كل منع إقصاء.

قد يكون بعض المنع حماية.

ثم، كأن الآية السابقة تركت في القلب شيئاً من صورة الضيق، يأتي المطر:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

هذه من أبهى صور السورة.

أرض يابسة.

عيون تتطلع إلى السماء.

انتظار طال.

قنوط بدأ يتسرب.

ثم...

ينزل الغيث.

ولم تقل الآية: المطر.

قالت:

﴿الْغَيْثَ﴾.

وهو المطر حين يحمل معنى الإغاثة.

كأن الماء لا ينزل على التراب فقط.

بل ينزل على اليأس.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾.

يا لجمال التوقيت القرآني!

ليس قبل القنوط بقليل.

بل:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾.

حين حسبوا أن السماء لن تفتح.

حين بدأت احتمالات البشر تنفد.

عندها يأتي الغيث.

وهذه ليست حكاية المطر وحده.

إنها صورة يمكن أن تسري في حياة الإنسان كلها.

كم من فرج جاء بعد أن ظن صاحبه أن الطرق انتهت!

كم من قلب كاد يستسلم لليل، ثم خرج من شق صغير أول خيط للفجر!

كم من أمر ظنه الإنسان مغلقاً إلى الأبد، ثم فتح الله فيه باباً لم يكن في حسابه!

﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

تأمل:

ينشر.

كأن الرحمة كانت مطوية، ثم بسطها الله فوق الأرض.
وتحول الأرض في ساعات.

التراب الذي كان شاحباً يبدأ بالاحضرار.

البذور التي حسبتها ماتت تستيقظ.

والهواء نفسه يحمل رائحة حياة جديدة.

وهكذا رحمة الله.

قد تصل إلى موضع فيك ظننته مات.

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

عاد اسم الولي.

في أول الرحلة:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

وهنا بعد المطر:

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

كأن الولاية ليست معنى نظرياً.

انظر إليها وهي تنزل غيثاً بعد القنوط.

هو وليك حين يربيك بالمنع.

ووليك حين يغيثك بالعطاء.

وليك في تأخير المطر.

ووليك حين يفتح السماء.

ولهذا هو:

﴿الْحَمِيدُ﴾.

محمود في كل تديره، حتى التدبير الذي لا تفهم وجه الحمد فيه أول الأمر.

ثم ترفع السورة الرأس مرة أخرى إلى السماء:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

ها هي الحركة التي رأيناها من أول السورة تتكرر:

القلب.

الرزق.

المطر.

ثم الكون.

سورة الشورى لا تسمح لك أن تبقى محبوساً في نفسك طويلاً.

كلها ضايق أفقك، أخذتك إلى السماوات والأرض.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

الحياة ماثلة.

لا تقف عندك.

ولا عند مدينتك.

ولا عند نوعك.

عالم واسع من المخلوقات، تتحرك كلها في ملك الله.

ثم ترد الآية إلى موضوع الجمع:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

عاد الجمع مرة ثالثة في السورة.

﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

كأن السورة تبني في وعيك يقيناً متكرراً:

هذا الوجود الذي تراه متفرقاً، سيعود يوماً إلى ساحة واحدة.

والذي بث الخلق قادر أن يجمعهم.

فالقدرة على البدء دليل القدرة على الإعادة.

ثم من الكون الواسع تعود بك السورة فجأة إلى أملك الشخصي:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

آية تحتاج قلباً دقيقاً عند تلقيها.

فالقُرآن يقرر أن للذنوب آثاراً، وأن من المصائب ما يكون بسبب ما كسبت الأيدي، لكنه لا يجيز لنا أن نحول كل مصيبة تصيب شخصاً بعينه إلى حكم جازم عليه بأنه مذنب بسببها؛ فالأنبياء، وهم صفوة الخلق، ابتلوا، والبلاء قد يكون رفعاً للدرجات وتحيصاً ورحمة.

لكن الآية تريد أن تفتح باب المحاسبة.

حين تنزل المصيبة، لا تجعل أول سؤال دائماً:

من السبب خارج نفسي؟

اسأل أحياناً:

ماذا بيني وبين الله؟

هل في الطريق شيء يحتاج إلى مراجعة؟

هل من ذنب أصر عليه؟

هل من حق أهملته؟

فالإنسان بارع في تحليل العالم، ضعيف في تحليل نفسه.

يرى أخطاء الحكومات.

والمجتمعات.

والأقرباء.

والخصوم.

لكنه يحتاج إلى قرآن يضع مرآة أمام قلبه:

﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ثم لا تترك الآية تحت ثقل المحاسبة.

تقول مباشرة:

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

يا لها من جملة لو استقرت في القلب!

ليست المصيبة بحجم ذنوبنا.

لو أخذنا الله بكل ما نفعل، ما بقي لنا هذا الستر.

كم من خطأ مر بلا عقوبة ظاهرة؟

كم من ذنب ستره الله فلم يعرفه الناس؟

كم من تقصير تجاوز عنه؟

كم من كلمة كان يمكن أن تدمر حياة، فستر الله أثرها؟
ويعفو عن كثير.

إننا لا نعيش فقط على أعمالنا.

نعيش على عفو الله.

ولا نمشي فقط بأسباب قوتنا.

نحن محمولون فوق مساحات واسعة من الستر الذي لا نراه.

ثم:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.
الإنسان يهرب كثيراً.

من نفسه.

من الحقيقة.

من نتائج أفعاله.

وقد ينجح في الإفلات من قانون أرضي، أو من محاسبة بشرية، أو من ذاكرة الناس.
لكنه:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

الأرض كلها ليست خارج ملكه حتى تبحث فيها عن ركن يخرجك من سلطانه.

وهنا تعود السورة مرة أخرى إلى الولي والنصير.

كأن هذا اللفظ يرافقنا في كل منعطف.

اتخذ الناس أولياء.

ثم قيل لهم: الله هو الولي.

ثم رأينا الغيث ينزل:

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

والآن:

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وكان السورة تريد أن تتزعزع القلب برفق وحزم من اعتماده المتشعب على الأشياء، ثم تجمعها

في جهة واحدة:

إلى الله.

وهكذا تنتهي هذه المحطة وقد مرت بنا مشاهد تبدو متباعدة، لكنها في الحقيقة مربوطة
 بنحيط واحد:
 تشريع لا يكون إلا بإذن الله.
 جنة هي فضل كبير.
 نبي لا يطلب على الوحي أجراً.
 باطل يحوه الله.
 حق يثبت به بكلماته.
 توبة يقبلها.
 سيئات يعفو عنها.
 دعاء يستجيبه.
 رزق يقدره.
 غيث ينزله بعد القنوط.
 رحمة ينشرها.
 كون يملؤه بالآيات.
 مصيبة توقظ الإنسان.
 وعفو يحيط بأكثر مما نتصور.
 ثم ولاية لا يملكها على الحقيقة إلا الله.
 وفي قلب هذه المحطة تقف آيتان كأن بينهما سرّاً عجيباً:
 ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾.
 ثم بعدها مباشرة:
 ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾.
 هو الذي يمنع لأن المنع قد يحمك.
 وهو الذي يعطي حين يصير العطاء رحمة.
 فليست القضية أن تفتح الأبواب دائماً.
 القضية أن يكون الذي يدير فتحها وإغلاقها هو الخبير البصير، الولي الحميد.
 وهنا يتعلم القلب منزلة دقيقة جداً:
 أن يطلب من الله ما يحب...

لكن أن يثق بالله أكثر مما يثق بما يجب.
 لأنك قد تطلب البسط، والله يعلم أن سلامتك في القدر.
 وقد تبكي لأن الغيث تأخر، بينما الله يعد الأرض والقلب للحظة نزوله.
 وقد تضيق بالمصيبة، وفيها مراجعة تتفذك من مصيبة أكبر.
 وقد تحجل من ذنبك، فيفتح لك ربك من باب التوبة ما لم يكن ليفتحه لك غرور الطاعة.
 وهكذا تصنع سورة الشورى قلباً لا يقرأ أحداث حياته قراءة سطحية.
 لا يقول فقط:
 أعطيت.
 أو منعت.
 نجحت.
 أو خسرت.
 نزل المطر.
 أو تأخر.
 وقعت المصيبة.
 أو انكشفت.
 بل يسأل وراء كل ذلك:
 ما الذي يريد الله أن يعلمني إياه عن نفسي وعن ربوبيته؟
 وفي المحطة القادمة ستأخذنا السورة إلى البحر.
 إلى السفن التي تجري في الماء كالأعلام.
 ثم إلى ربح إن سكنت بقيت السفن رواكد على ظهره، وإلى عاصفة تستطيع أن تهلكها بما
 كسب أهلها.
 ومن هناك ستفتح السورة واحداً من أجمل أبوابها:
 كيف يرى المؤمن الدنيا حين يضعها بجوار الآخرة؟
 حتى نصل إلى ذلك الوصف المهيّب للمجتمع المؤمن:
 ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾: حين يعبر المؤمن بحر الدنيا بقلبٍ موصول بالله

بعد أن حدثتنا السورة عن الغيث، وعن الرزق، وعن المصائب، وعن الولاية، تفتح أمامنا
صفحةً أخرى من كتاب الكون:

البحر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾.

الجوار: السفن الجارية.

لكن القرآن لا يقول: السفن فقط.

يختار كلمة فيها حركة:

﴿الْجَوَارِ﴾.

كأنك تراها وهي تشق صفحة الماء.

ثم يرسم حجمها:

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾.

كأنها الجبال أو العلامات العظيمة القائمة في الأفق.

سفن ضخمة.

خشب وحديد وأشرعة وأجساد بشرية وأحمال ثقيلة، تجري فوق ماء لا يستطيع الإنسان
أن يقف عليه بقدمه لحظة.

كم مررنا بهذا المشهد دون أن نتعجب؟

السفينة بالنسبة لنا اختراع.

لكن القرآن يعيدها إلى أصل أعمق:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾.

فالإنسان صنع السفينة، نعم، لكنه لم يصنع قوانين الطفو.

ولم يصنع الماء.

ولم يصنع الريح.

ولم يصنع مادة الخشب والحديد.

ولم يمنح العقل نفسه القدرة على اكتشاف هذه السنن.

إن كل اختراع بشري يقف، إذا تأملت طويلاً، فوق أرض واسعة من العطاء الإلهي السابق.

الإنسان يرتب ما خُلق له.

يجمع ما أُودع في الكون.

يكشف سنة لم يصنعها.

ثم قد ينسى صاحب السنة.

ولهذا يقول القرآن:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾.

أعد النظر.

لا تر السفينة وحدها.

ر اليد التي جعلت البحر قابلاً لأن يحملها.

ثم يقول:

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾.

ما أضعف الحركة التي نعثر بها!

سفينة عظيمة.

رجال.

حبال.

أشرعة.

خبرة.

استعداد.

لكن ريحاً واحدة إذا سكنت...

وقفت السفن.

﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾.

هذا مشهد يتجاوز السفن.

إنه صورة للحياة كلها.

كم من مشروع ظن الإنسان أن كل أسبابه اكتملت، ثم سكنت "ريح" لم تكن في حسابه، فتوقف كل شيء!

كم من إنسان امتلك المعرفة والمال والعلاقات، ثم غاب عنه سبب واحد، فبقيت حياته في موضعها لا تتحرك!

نحن نحب أن ننسب الحركة إلى أنفسنا.

أن نقول:

فجحتُ لأنني خططت.

بلغتُ لأنني اجتهدت.

وصلتُ لأنني كنت أذكر.

ولا يتكر القرآن قيمة الأسباب ولا العمل، لكنه يمنعك من تحويل السبب إلى رب.

فوراء كل حركة إذن.

ووراء كل ريح تدير.

ووراء كل نجاح أسباب ترى بعضها، وأقدار لا تراها.

ثم:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

لماذا الصبار الشكور؟

لأن آيات الله لا يقرأها كل قلب بالطريقة نفسها.

قد يرى الناس البحر نفسه.

والسفينة نفسها.

والريح نفسها.

لكن واحداً يرى ظاهرة طبيعية فقط، وآخر يرى آية.

الفرق ليس دائماً في العين.

بل في القلب.

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الصبر والشكر يفتحان البصيرة.

الصابر يعرف أن الأشياء ليست دائماً على الصورة التي يريد.

والشكور يعرف أن النعمة ليست حقاً مستحقاً.

فإذا اجتمعت في القلب هاتان الصفتان، صار قادراً على قراءة التدبير:

إن تحركت الرياح شكر.

وإن سكنت صبر.

إن جرت السفينة حمد.

وإن توقفت لم ينقلب على ربه.

وهذا، في الحقيقة، وصف لطريقة المؤمن في عبور الحياة.

صبار شكور.

بين المنع والعطاء.

بين السكون والحركة.

بين العاصفة والهدوء.

ثم تعرض السورة الوجه الآخر للبحر:

﴿أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

يمكن للسفن نفسها التي بدت قبل قليل آية في القدرة والجريان أن تصبح في لحظة موضع هلاك.

﴿يُوقِنُ﴾.

يهلكهن.

إن البحر الذي يحمل قد يبتلع.

والرياح التي تدفع قد تعصف.

وهكذا الأسباب في الدنيا ليست آلهة مستقلة.

الشيء نفسه قد يكون نعمة حين يجريه الله بالرحمة، وقد يصير موضع هلاك إذا تغير التقدير.

ثم تأتي العبارة التي سمعنا صداها قبل قليل:

﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

مرة أخرى.

كأن السورة لا تريد للقلب أن ينسى هذا الباب.

لو جرت المقادير كلها على مقدار ما يستحقه الإنسان بذنوبه، لكان الأمر أشد مما نرى.

لكنه يعفو.

ويعفو عن كثير.

وحين تكرر السورة هذه الجملة فإنها تربي المؤمن على معنى دقيق:

لا تنظر إلى ما أصابك فقط.

انظر أيضاً إلى ما لم يصيبك.

قد تشكر الله على نعمة أعطاك إياها، لكن هل شكرته على بلاء صرفه عنك ولم تعرف به أصلاً؟

كم حادثة مرت إلى جوارك ولم تقع بك؟

كم مرضاً لم يدخل جسدك؟

كم عدواً لم يصل إليك؟

كم خطأ كان يمكن أن تفضح عاقبته حياتك كلها، فغفا الله؟

إن النعم ليست فقط أشياء تملكها.

بعض النعم أشياء لم تقع.

ثم تقول الآية:

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾.

حين تتقلب السفينة بين ريح تحركها وريح تسكنها وعاصفة تهلكها، يظهر للإنسان أنه ليس سيد المشهد.

قد يجادل في البر.

قد يسخر.

قد يتفلسف طويلاً وهو آمن.

لكن في لحظة الخطر، حين تسقط عنه سيطرته الوهمية، يرى بوضوح كم هو ضعيف.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾.

لا مهرب.

لا منفذ يخرجهم من ملك الله.

ثم، بعد هذا المشهد البحري المهيّب، تأتي جملة تضع الدنيا كلها في حجمها الحقيقي:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

تأمل العموم:

﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.

كل شيء..

المال.

البيت.

المنصب.

الشهرة.

الجمال.

القوة.

الذكاء.

المكتبة.

المشروع.

النجاح.

النفوذ.

حتى الأشياء التي ملأت عينك حتى ظننت أنها عظيمة جداً:
﴿فَتَتَّاعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

ومتاع المسافر ليس بيته الأخير.

هو شيء يستعمله في الطريق ثم يتركه.

وهذا التعبير يهذب العلاقة بالدنيا دون أن يطالب الإنسان أن يهجرها.

المشكلة ليست أن يكون لك متاع.

المشكلة أن تنسى أنه متاع.

أن تتعامل مع المؤقت كما لو كان أبدياً.

أن تبني هويتك كلها على شيء سيغادر يدك.

أن تتبع الباقي لتحفظ بالزائل.

ثم:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

كلمتان تصححان ميزان الإنسان:

خير.

وأبقى.

الدنيا قد تكون جميلة، لكن ما عند الله خير.

والدنيا قد تطول، لكن ما عند الله أبقي.

والإنسان لا يفضل دائماً لأنه اختار الشر على الخير؛ أحياناً يفضل لأنه اختار خيراً صغيراً على خير أكبر.

اختار لذة عاجلة على كرامة باقية.

ومكسباً سريعاً على رضا الله.

وتصفيق ساعة على سلامة الأبد.

ولهذا تحتاج النفس دائماً إلى ميزان:

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

ليس الدين دعوةً إلى احتقار نعمة الدنيا، وإنما إلى وضعها في موضعها الصحيح.

استمتع بالحلال.

واشكر.

وابن.

واعمل.

لكن لا تجعل المتاع وطنك النهائي.

ثم تحدد السورة لمن يكون ذلك الباقي:

﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الإيمان.

والتوكل.

عاد التوكل من جديد.

ففي بداية السورة قال:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

والآن يتحول ذلك الإعلان الفردي إلى وصف جماعة كاملة:

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وكان السورة بدأت بصناعة الفرد ثم بدأت هنا تصف مجتمع المؤمنين.

وهذا مهم للغاية.

فالشورى التي ستأتي بعد آيات ليست إجراءً منفصلاً عن بناء القلب.

قبل أن يقول:

﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

يبني أناساً قادرين أخلاقياً على ممارسة الشورى.

أناساً يؤمنون.

ويتوكلون.

ويجتنبون الكبائر.

ويغفرون عند الغضب.

وليستجيون لله.

ويقيمون الصلاة.

وينفقون.

ثم بعد ذلك يتشاورون.

وكان القرآن يقول:

النظام وحده لا يصنع مجتمعاً صالحاً.

لا بد من إنسان صالح للنظام.

فالآليات العادلة في يد النفوس الفاسدة قد تتحول إلى أدوات جديدة للأنانية.

ولهذا يبدأ وصف الجماعة من الداخل:

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَئْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

تأمل التوازن.

هم لا يستهينون بالكبائر والفواحش.

هناك وضوح أخلاقي.

ليس كل شيء عندهم نسبياً.

يعرفون أن هناك إثماً.

وأن هناك فواحش.

ويجتنبونها.

لكن حين ينتقل الأمر من مواجهة الشر المجرد إلى التعامل مع الناس الذين يؤذونهم، تظهر صفة أخرى:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

لم يقل: لا يغضبون.

لأن الغضب طبيعة بشرية.

وقد يكون الغضب للحق محموداً.

لكن الامتحان ليس أن لا يشعر القلب بالغضب.

الامتحان:

ماذا تفعل حين تغضب؟

وهنا:

﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

هذا وصف لنفوس قوية.
فالعفوان عند العجز سهل أن يتشبه بالعفو.
لكن العفو الحقيقي يظهر حين تملك القدرة على الرد، ثم يختار قلبك ألا يحول الغضب إلى سيد.

كم من إنسان هدم سنوات من الخير في خمس دقائق غضب!
كم من علاقة قطعها كلمة خرجت حين اشتعل الدم!
كم من ظلم بدأ بجملة:
كنت غاضباً.

والقرآن يريد مجتمعاً لا يدير شؤونه بأعصاب منفلة.
مجتمعاً يستطيع أفراداه أن يضبطوا نار الغضب قبل أن تتحول إلى حريق عام.
وهذا تمهيد بالغ الجمال للشورى.
فالذي لا يملك نفسه عند الغضب، كيف يسمع رأياً يخالفه؟
وكيف يحتمل النقد؟

وكيف يتراجع إذا بان له الخطأ؟
وكيف يجلس مع آخرين على طاولة واحدة دون أن يحول الاختلاف إلى خصومة؟
إن الشورى تحتاج قبل القوانين إلى أخلاق.

ثم:
﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾.
هنا أصل كل شيء.

قبل أن يستجيبوا لبعضهم، استجابوا لربهم.
قبل أن يتفقوا على نظام، اتفقوا على مرجعية.
قبل أن يناقشوا الوسائل، حُسمت عندهم الغايات الكبرى.
﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾.

الاستجابة أعمق من السماع.
قد يسمع الإنسان الحق ولا يتغير.
وقد يعرف الحكم ثم يسوف.
أما الاستجابة فهي أن يتحول النداء إلى حركة.
قال الله: فأطاع.

دعاه: فأقبل.

نهاه: فانتهى.

كشف له خطأه: فرجع.

وهذه هي الحياة الحقيقية مع الوحي.

ليس أن تقول: هذه آية جميلة.

بل أن تسأل:

ماذا تريد هذه الآية أن تغيّر فيّ؟

ثم:

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

في وسط بناء المجتمع يأتي عمود العلاقة بالله.

الصلاة.

لأن المجتمع المؤمن لا يحيا بالاجتماعات وحدها.

يحتاج إلى محراب.

يحتاج إلى لحظات تتساوى فيها الجباه على الأرض.

فالإنسان الذي يقف بين يدي الله خمس مرات في يومه تتكسر فيه، إن صدقت صلاته،
أوهام السيادة.

يتذكر أنه عبد.

وأن فوقه رباً.

وأن القرار ليس ملكاً له مطلقاً.

وأن الناس الذين يختلف معهم سيقفون معه أمام الله.

ولهذا تأتي الصلاة قبل الشورى.

ليس مصادفة في البناء.

إنها تربي في النفس تواضعاً تحتاجه الشورى.

ثم تأتي العبارة التي سمت بها السورة كلها:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

يا لعظمة التركيب.

لم يقل فقط:

يشاور بعضهم بعضاً.

قال:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

كأن الشورى صارت وصفاً لأمرهم نفسه.

طبيعة في جماعتهم.

أسلوباً في إدارة شأنهم.

خلقاً اجتماعياً قبل أن تكون مادة إدارية.

ثم تأمل:

﴿وَأَمْرُهُمْ﴾.

الأمر الذي يشترك الناس فيه لا يتحول إلى ملك شخص واحد يتصرف فيه كيف يشاء.

ما كان عاماً فله في الجماعة حق النظر والمشاركة بحسب موضعه وأهليته.

ثم:

﴿بَيْنَهُمْ﴾.

ليست الشورى حركة من الأعلى إلى الأسفل فقط.

إنها تداول.

سماع.

تبادل نظر.

اعتراف بأن الإنسان مهما بلغ قد يرى غيره ما لم يره.

وهنا تتجلى عظمة الإسلام في تربية الإنسان المسؤول.

فهو لا يريد مجتمع القطيع الذي ينتظر فرداً يفكر عنه في كل شيء.

ولا يريد فوضى يتحدث فيها الجميع بلا ميزان.

بل يريد مجتمعاً اجتمع أولاً على الله، ثم يدير أمره المشترك بالتشاور.

وهذا الترتيب يمنع انحرافين متقابلين:

استبداد الفرد.

وفوضى الأهواء.

فالمرجعية لله.

والاجتهاد البشري في تنزيلها وإدارة الشأن المشترك يجري بالشورى.

ومن هنا نفهم لماذا لم تأت آية الشورى منفردة.

لقد سبقتها صفات كاملة:

إيمان.

توكل.

اجتناب للكبائر.

عفو عند الغضب.

استجابة لله.

إقامة للصلاة.

ثم الشورى.

وسياتي بعدها:

﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

أي أن المجتمع الشوري ليس مجتمع الكلام فقط.

إنه مجتمع البذل.

ليسوا بارعين في الاجتماعات عاجزين عند التضحية.

﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

وتأمل كلمة:

﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾.

حتى المال الذي ينفقونه لم يصنعه استقلالاً.

هو رزق من الله.

فإذا أنفقوا، لم يشعروا أنهم يتفضلون على الناس من ملك ذاتي مطلق.

هم يعيدون جزءاً مما رزقهم الله إلى الموضع الذي يحبه الله.

وهذا الوعي يطهر العطاء من المن.

فالمنفق الذي يقول في داخله: مالي وأنا حرفيه، أقرب إلى البخل والغرور.

أما الذي يسمع:

﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ﴾

فيعرف أنه أمين على النعمة.

ثم تكمل السورة صورة المجتمع:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

وهنا قد يفتأ القارئ.

قبل قليل:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

والآن:

﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

أ يغفرون أم ينتصرون؟

والجواب: هنا جمال التوازن القرآني.

الإسلام لا يريد نفساً حاكمة لا تعرف العفو.

ولا يريد نفساً ذليلة تسمح للبغي أن يتحول إلى نظام.

هناك موضع للعفو.

وهناك موضع لدفع الظلم.

الفرد قد يعفو عن حق شخصي.

لكن حين يتحول البغي إلى عدوان مستمر، قد يكون الانتصار للحق هو الواجب.

إن الرحمة لا تعني تعطيل العدل.

والعفو لا يعني تربية الظالم على أن لا ثمن لظلمه.

وهذا التوازن من أعظم ما يميز الأخلاق القرآنية.

فهي ليست أخلاق ضعف.

وليست أخلاق انتقام.

إنها أخلاق ميزان.

ولهذا جاءت الآية التالية لتحديد هذا الميزان:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

مثلها.

هنا قيد العدالة.

لك أن تنتصر.

لكن لا تتحول وأنت تنتصر إلى صورة أخرى من ظلمك.

لك أن تأخذ حقك.

لكن بقدره.

فليس الظلم الذي وقع عليك تصريحاً مفتوحاً لك أن تظلم.

وهذه من أصعب الاختبارات.

فالإنسان وهو هادئ يتحدث كثيراً عن العدل.

لكن حين يوجع يريد أحياناً أكثر من حقه.
وحين يُهان لا يريد فقط رد الإهانة؛ يريد سحق الآخر.
وحين ينتصر بعد ضعف قد يتحول إلى أكثر قسوة ممن ظلمه.
وهنا يقف القرآن:
﴿مِثْلَهَا﴾.

الحق له حد.
والقصاص له ميزان.
ولا يجوز أن يجعل الغضب الإنسان ينسى الميزان الذي أنزل الله الكتاب به.
ثم، بعد أن أقر حق الانتصار، يفتح باباً أعلى:
﴿فَنَ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.
لم يقل:
فن عفا فقط.
قال:

﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾.
لأن العفو ليس فضيلة في كل صورة إذا أدى إلى فساد أعظم.
العفو المحمود هو الذي يصنع إصلاحاً.
إذا كان العفو يصلح القلب.
ويطفيئ الفتنة.
ويعيد إنساناً إلى رشده.
ويوقف دورة الانتقام.
فهنا يرتفع إلى مقام عجيب:
﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.
لم يذكر مقدار الأجر.
كأن اللغة تتراجع.
ويكفيك أن يكون أجرك على الله.
أنت تنازلت عن حق تملكه.
لم يعجزك خصمك.
بل تركت شيئاً لله.

فَاللَّهُ يَتَوَلَّى أَعْرَاجَكَ.

وهنا مساحة لا يستطيع الحساب البشري قياسها.

ثم:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

حتى لا يفهم أحد العفو بأنه حب للظلم.

الله لا يحب الظالمين.

والقرآن لا يَجْمَلُ الظلم باسم التسامح.

إنه يحارب الظلم، ثم يفتح في موضع القدرة باباً للعفو الذي يصلح.

هذا هو الميزان.

ثم يقول:

﴿وَلَمَنَ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

هذا تثبيت للمظلوم.

ليس مذنباً لأنه طالب بحقه.

وليس مطالباً دائماً أن يتنازل كي يُعد صالحاً.

هناك نوع من الخطاب الأخلاقي قد يضغط على المظلوم باسم الفضيلة، بينما يترك الظالم في راحته.

القرآن لا يفعل ذلك.

يقول للمظلوم:

إذا انتصرت بحق بعد ظلمك، فلا لوم عليك.

ثم يحدد من يستحق اللوم:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هناك توجه البوصلة.

إلى الظالم.

إلى الباغي.

إلى من يجعل قوته وسيلة لإيذاء الناس.

إلى من يتجاوز الحد لأنه يملك القدرة.

إن القرآن لا يساوي أخلاقياً بين من بدأ بالبغي ومن دفع البغي عن نفسه.

وهذا من عدله.

لكن بعد أن قرر حق الانتصار، يعود مرة أخرى إلى منزلة أعلى:
﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

يا لجمال التعبير:

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أي من الأمور التي تحتاج إلى عزم حقيقي.

فالعفو ليس رخاوة.

قد يكون أشد على النفس من الانتقام.

أن تكون قادراً على الرد.

ويشتعل فيك الغضب.

وتملك جنتك.

ثم تضبط نفسك لله...

هذا يحتاج إلى قوة.

والصبر هنا ليس أن تشعر بأنك لم تتألم.

بل أن تحمل الألم دون أن تجعله يعيد صياغتك على صورة من آذاك.

أن لا تسمح لظلم الآخرين أن يفسد قلبك.

أن تبقى أنت، رغم ما فعلوه.

وهذا من أعظم الانتصارات.

قد تنتصر على خصمك وتخسر نفسك.

وقد تعفو عنه فتنتصر على شيء أخطر كان يتشكل داخلك.

ولهذا:

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

وهنا إذا عدنا قليلاً إلى وراء رأينا كيف صنعت السورة مجتمع الشورى.

لم تبدأ بالمؤسسات.

بدأت بالقلب.

قالت:

﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

ففررتهم من عبودية الخوف.

ثم:

﴿يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْأَثَمِ﴾

فبنت فيهم الضمير.

ثم:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

فهذبت القوة الداخلية.

ثم:

﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾

فوحدت مرجعيتهم.

ثم:

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

فوصلتهم بالسمااء.

ثم:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

فنظمت علاقتهم بعضهم ببعض.

ثم:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

فحررت المال من الأثانية.

ثم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾

فحمت المجتمع من الاستسلام للظلم.

ثم:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾

فمنعته من التحول إلى مجتمع انتقام.

إنها هندسة أخلاقية واجتماعية مدهشة.

الشورى ليست كلمة معلقة في الفراغ.

إنها نتيجة إنسان معين.

إنسان إذا اختلف لا يفجر.

وإذا غضب لا يظلم.

وإذا امتلك لا يخل.

وإذا قوي لا يبغي.

وإذا ظلم لا يذل.

وإذا قدر على العفو عرف متى يعفو.

هذا الإنسان هو الذي يمكن أن يبني مجتمعاً لا يبتلعه فرد، ولا تمزقه الأهواء.

ولعل هذا من أعمق أسرار تسمية السورة بالشورى.

فالكلمة لم تأت بوصفها نظاماً منفصلاً عن الإيمان، بل خرجت من وسط صفات روحية وأخلاقية.

كأن القرآن يقول:

لا تبجثوا عن عدل المؤسسات إذا لم تبثوا عدل النفوس.

ولا تطلبوا تداول الرأي من قلوب لا تحتمل أن تسمع إلا صوتها.

ولا تحملوا بالشورى مع إنسان يرى مخالفه عدواً بمجرد أنه خالفه.

الشورى تبدأ حين يعترف المرء أنه ليس الحقيقة كلها.

أن عند غيره شيئاً يستحق أن يُسمع.

أن خطأه ممكن.

وأن الرجوع إلى الصواب ليس هزيمة.

ومن هنا تلتقي الشورى مع التوحيد في موضع خفي وعميق:

من عرف أنه عبد لله، هان عليه أن لا يكون سيِّداً على الناس.

ومن عرف أن الحكمة ليست ملكاً شخصياً له، استطاع أن يسمع.

ومن عرف أن الأمر لله في النهاية، لم يجعل ذاته مركز الكون.

وهكذا نكتشف أن آية:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

ليست آية في الحكم فقط.

إنها آية في التواضع الإنساني.

وفي الاعتراف المتبادل.

وفي توزيع المسؤولية.

وفي كسر الاستبداد الذي يبدأ غالباً من فكرة واحدة:

“أنا وحدي أعرف.”

وسورة الشورى، منذ مطلعها، كانت تهدم هذه الفكرة.

بدأت بحروف يقف العقل أمام سرها متواضعاً.

ثم قالت إن الوحي لله.

وإن الحكم لله.

وإن التشريع لله.

وإن الرزق لله.

وإن الولاية لله.

فكيف، بعد كل هذا، يستطيع إنسان أن يجعل نفسه إلهاً صغيراً في شؤون الناس؟

إن التوحيد الصادق يضيق مساحة الاستبداد؛ لأن المستبد يحتاج، في أعماقه، أن ينسى أنه عبد.

ثم ختمت هذه الوحدة بأعلى درجات القوة:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾.

فالذي يقدر على حكم نفسه أحق بأن يشارك في حكم الأمر العام.

والذي تعجزه شهوة غضبه، يخشى أن تعجزه شهوة السلطة كذلك.

وهكذا تبدأ سورة الشورى من السماء، لكنها لا تترك الإيمان معلقاً في السماء.

تنزله إلى المال.

إلى الغضب.

إلى الخصومة.

إلى إدارة المجتمع.

إلى مقاومة الظلم.

إلى العفو.

وهذه هي عظمة الوحي:

أنه لا يقول للإنسان فقط ماذا يعتقد في الله، بل كيف يصبح ذلك الاعتقاد إنساناً يمشي بين الناس.

وفي المحطة القادمة ستبدأ السورة بنقلنا من صورة المجتمع المؤمن إلى مشهد النهاية مرة أخرى.

سنرى الإنسان الذي أضله الله فلا ولي له من بعده، وسنسمع الذين ينظرون إلى العذاب يقولون:

﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وسنرى الخاسرين لا وهم يخسرون أموالاً أو معارك، بل حين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

ثم ستعود السورة بنا، بعد ذلك المشهد المزلزل، إلى واحدة من أكثر حقائق الحياة رقة وإيلاماً:

الأولاد أنفسهم هبة، والعقم قدرٌ يجري بحكمة الله، والملك لله في الحالين. حتى نصل شيئاً فشيئاً إلى خاتمة السورة، حيث يكتمل القوس الذي بدأ به:

﴿حم * عسق﴾

وينتهي بالحديث المهيّب عن كيفية كلام الله للبشر، وعن القرآن بوصفه:

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾: حين تسقط أوهام القوة، ويقف الإنسان عارياً أمام المصير.

بعد أن بنت السورة صورة المجتمع المؤمن، وأقامت فيه ميزان العدل والعفو والشورى، تعود بنا فجأة إلى المصير.

كأنها لا تريد للإنسان أن يطمئن طويلاً إلى صورة الحياة الدنيا، مهما كانت مستقيمة؛ لأن الاستقامة نفسها لا تؤتي معناها الكامل إلا إذا ظلت الآخرة واقفة في خلفية المشهد.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾.

عاد الولي مرة أخرى.

ومنذ مطلع السورة وهذه الكلمة تتحرك بين الآيات كأنها خيط خفي يشد أجزاء البناء بعضها إلى بعض.

قيل:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

وقيل:

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وقيل:

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

والآن:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾.

كأن السورة تكرر على القلب درساً واحداً من جهات متعددة:

لا تجعل وليك الأخير غير الله.

فالناس قد يحبونك، ثم يعجزون.

وقد ينصرونك، ثم ينقطعون.

وقد يعدونك، ثم يتغيرون.

أما الولاية التي لا تنقطع، فلا تكون إلا لله.

والإنسان إذا أصر على الإعراض حتى يترك لاختياره، فقد بلغ موضعاً لا يستطيع فيه أحد أن ينتشله بقوته الخاصة.

فالهداية ليست شيئاً ينتزعه الإنسان من الله انتزاعاً.

إنها فضل.

وطلب.

وإجابة.

وقلب لم يغلق بابه.

ولهذا كان المؤمن يخاف من قسوة القلب أكثر مما يخاف من أزمات كثيرة ظاهرة.

فقد يخسر الإنسان مالاً ثم يعوضه.

ويخسر منصباً ثم ينساه.

ويخسر صديقاً ثم يجد غيره.

لكن أن يخسر حساسيته تجاه الحق...

أن يسمع الآية فلا يتحرك فيه شيء...

أن يذكر بالله فلا يشعر بحاجة إلى الرجوع...

فهذه خسارة من نوع آخر.

ثم تنقلنا الآية إلى مشهد الآخرة:

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾.

كانوا في الدنيا يطلبون التأجيل.

ويستهنون بالإنذار.

ويعجادلون في الساعة.

ثم حين رأوها لم يعودوا يسألون:

هل هي حق؟

ولا:

متى تقع؟

بل تبدل السؤال كله:

﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾.

هل يمكن الرجوع؟

هل يمكن فتح باب آخر؟

هل يمكن أن تعود الأيام؟

يا له من سؤال موجه!
كل إنسان في الدنيا يملك شيئاً لا يعرف قيمته كاملة:
إمكان الرجوع.
يمكنه أن يغير.
أن يتوب.
أن يعتذر.
أن يرد مظلمة.
أن يصلي بعد تفريط.
أن يصل رحماً قطعها.
أن يكسر كبره.
أن يبدأ من جديد.
أما هناك، فسيتحول كل شيء إلى أمنية مستحيلة:
﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.
ولهذا فإن كل صباح في حياة الإنسان هو، من وجه ما، نعمة اسمها: ما زال هناك مردّ.
ما زالت الصفحة تقبل الكتابة.
ما زال الباب مفتوحاً.
ما زال القلب يستطيع أن يقول: يا رب.
ثم ترسم السورة صورتهم وهم يعرضون على العذاب:
﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.
أي انقلاب هذا؟
كم كان في الدنيا من عين تتكبر!
عين تنظر إلى الناس من فوق.
عين لا تبالي بموعظة.
عين تستخف بالمؤمنين.
والآن:
﴿يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.
انكسرت النظرة قبل أن يتكسر الجسد.

إن الذل قد استولى عليهم حتى صاروا لا يملكون شجاعة النظر الكامل.
وهذا من روعة التصوير القرآني.
لا يكتفي بأن يقول: ذلوا.
بل يجعلك ترى الذل في العين.
طرف خفي.
نظرة مسروقة.

عين كانت ملء الدنيا، ثم لم تعد تقوى على مواجهة ما أمامها.
وكم في القرآن من تربية لنا عبر هذه التحولات!
فكل علو في الدنيا إذا لم يضبطه الخشوع لله يمكن أن ينتهي إلى هذا الانكسار.
ولهذا كان التواضع عبادة تحفظ الإنسان من أن يصنع لنفسه مقاماً ليس له.
ثم يأتي صوت المؤمنين:
﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.
هنا يعاد تعريف الخسارة.

في الدنيا نقول:

خسر تجارته.

خسر منصبه.

خسر بيته.

خسر نفوذه.

لكن القرآن يرفع السؤال إلى مستوى آخر:

ما الخسارة الحقيقية؟

﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾.

هذه هي الخسارة التي لا تعوض.

أن يصل الإنسان إلى النهاية وقد ضيع نفسه.

أن أمضى عمره يحافظ على أشياء كثيرة، لكنه لم يحافظ على قلبه.

جمع المال ولم يجمع الحسنات.

حفظ صورته أمام الناس وضيع صورته عند الله.

خطط لمستقبل أولاده في الدنيا ونسي مستقبلهم معه في الآخرة.

إن الإنسان قد ينجح في أشياء كثيرة، ثم يكون في الميزان الأخير خاسراً.
ولهذا يعيد القرآن ترتيب مفهوم النجاح من جذره.
فليس السؤال فقط:

ماذا حققت؟

بل:

ماذا بقي لك من نفسك عند الله؟

وليس السؤال:

هل عاش أهلك في رفاه؟

بل:

هل حملت عنهم ما تستطيع من أسباب النجاة؟

وهنا نرى أن الأسرة في المنظور القرآني ليست مجرد وحدة عاطفية أو اجتماعية.

إنها صحبة قد تمتد إلى المصير.

ومن أقصى صور الخسارة أن يتحول القرب الدنيوي إلى حسرة أخروية.

ثم تأتي الجملة الفاصلة:

﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

مقيم.

أي ليس عابراً.

وهنا تبرز المفارقة العجيبة بين الدنيا والآخرة.

كم تحمل الإنسان ألماً لأنه ظن أنه دائم، ثم مر.

وكم طارد لذة لأنه ظنها عظيمة، ثم انقضت.

الدنيا، في أصلها، دار مرور.

أما الآخرة فدار إقامة.

ولهذا كان من أعظم أخطاء الإنسان أن يضحي بالباقي من أجل العابر.

ثم:

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

مرة أخرى الأولياء.

الذين اتخذوهم في الدنيا لم يعودوا موجودين.

العلاقات التي بدت حصينة.

الأحلاف.

المصالح.

الوجوه.

الأسماء.

كلها سقطت.

وكان السورة تريد أن تسأل كل واحد منا:

من الذي تبني عليه أمانك؟

إن كان أمانك قائماً كله على مخلوق، فأنت تبني على شيء زائل.

أما أن تتخذ الأسباب، وتحب الناس، وتستعين بهم فيما يقدرون عليه، وقلبك في النهاية معلق بالله، فذاك هو التوازن.

ثم:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

في أول الآية:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَبٍ﴾.

وهنا:

﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

لا ولي.

ولا سبيل.

كان أبواب النجاة تغلق كلها إذا أغلق الإنسان قلبه عن الله حتى يأتيه الحكم.

ولهذا يأتي النداء بعد هذا المشهد مباشرة:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

ما أجمل الصلة بين هذا وبين قوله قبل قليل:

﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

هناك يطلبون المرد.

وهنا، في الدنيا، يقال لنا:

استجيبوا قبل أن يأتي يوم لا مرد له.

هذه من أشد الآيات وضوحاً في معنى الفرصة.

القرآن لا يريد أن يفاجئك.

لقد أخبرك مسبقاً.

كأن الرحمة الإلهية ترسل إليك خبر النهاية وأنت ما تزال قادراً على تغيير الطريق.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾.

ولم يقل: اعرفوا فقط.

كما مر معنا من قبل.

الاستجابة هي محور السورة كلها.

الوحي ينزل.

لكن السؤال:

من يستجيب؟

فالقرآن ليس كتاباً ليعجب الإنسان بجماله ثم يظل كما هو.

هو نداء.

والنداء ينتظر حركة.

ثم:

﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

لا ملجأ.

كم يبحث الإنسان في الدنيا عن الملاجئ!

المال ملجأ.

العشيرة ملجأ.

السلطة ملجأ.

الشهرة ملجأ.

الإنسان الآخر ملجأ.

لكن يوم القيامة تسقط كل الملاجئ المصنوعة.

ولا يبقى إلا ما بنيته مع الله.

وهنا يعود بنا معنى السورة من جديد إلى أصل الولاية.

فمن كان الله ملجأه في الدنيا، لم يكن وحده في الآخرة.

أما من بنى أمانه بعيداً عنه، فهناك تظهر هشاشة البناء.

ثم يقول الله لنبيه ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

عاد تحديد وظيفة الرسول.

مرت معنا في البداية:

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

والآن:

﴿فَقَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾.

كأن مطلع السورة ونهاياتها الوسطى يرددان المعنى نفسه.

الرسول ﷺ يحمل النور، لكنه لا يملك قلوب الناس.

وهذا يحرر الداعية من عبء ثقیل.

عليك أن تبلغ بأمانة.

أن تقول الحق بحكمة.

أن تنصح.

أن تصبر.

لكن ليس عليك أن تقتحم قلب أحد.

ولا أن تعتبر كل إعراض هزيمة شخصية.

الهداية لله.

وهذا من أجمل وجوه العبودية في الدعوة:

أن تعمل بكل ما تستطيع، ثم لا تتأله على النتائج.

لا تقول:

أنا أهديت فلاناً.

ولا:

أنا أملك أن أغير كل الناس.

بل أنت سبب.

والقلوب بيد الله.

ثم تنتقل الآية إلى تشریح نفسي دقيق جداً للإنسان:

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرحَ بِهَا﴾.
أي إنسان هذا الذي تصفه السورة؟
إنه نحن.

حين تأتي النعمة، يفرح.
المال.

الصحة.

الولد.

القبول.

النجاح.

فتح الأبواب.

ولا يذم القرآن أصل الفرح هنا من حيث هو إحساس، وإنما يكشف سرعة تعلق الإنسان بما يصله من الرحمة.

ثم:

﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.
ما أسرع انقلاب المزاج!
نعمة واحدة قد تجعله سعيداً.

ومصيبة واحدة قد تجعله ينسى عشرات النعم.

هذه من أكثر نقاط الضعف الإنساني خفاءً.

نحن نتذكر الألم أكثر مما نتذكر العافية.

وبملاً الحرمان عيننا حتى تختفي أشياء كثيرة ما زالت بأيدينا.

وتأتي خسارة واحدة فتمحو من الوعي تاريخاً طويلاً من العطايا.

ولهذا يقول:

﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

أي شديد الكفران للنعمة.

كأن ذاكرته مع النعم قصيرة، وذاكرته مع الألم طويلة.

وهنا يعالج القرآن ميزان الشعور.

فالمؤمن لا يطلب منه ألا يحزن.

الحزن بشري.

لكن يُطلب منه ألا يجعل الحزن يحو الحقيقة.

لا يجعل المصيبة الوحيدة أكبر من ألف نعمة ما زالت تحيط به.

ولا يجعل الباب المغلق ينسبه الأبواب المفتوحة.

ثم تأتي واحدة من أعمق آيات الرزق:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

عاد الملك.

لكن هذه المرة ستظهر ثمرة الملك في موضع شديد الحساسية من حياة الناس:

الأبناء.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.

تأمل اللفظ:

﴿يَهَبُ﴾.

الأولاد هبة.

ليست صناعة بشرية خالصة.

نأخذ بالأسباب، لكن الحياة لا تُصنع بأيدينا.

يمكن للإنسان أن يخطط للبيت.

وأن يختار.

وأن يعالج.

لكن لحظة وجود إنسان جديد في هذا العالم تبقى، في أصلها، منحة.

﴿يَهَبُ﴾.

وهذه الكلمة وحدها تغير علاقة الأب بولده والأم بولدها.

إذا رأيت الطفل هبة، لم تعد تنظر إليه كملكية.

الهبة أمانة.

تفرح بها.

وتحمدها وهبها.

وتعرف أنك لم تخلقها.

ثم تأمل تقديم الإناث:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَآثًا﴾.

في مجتمع جاهلي كان يضيق بالأنثى، يأتي القرآن ويسميا أولاً:
هبة.

ليس عبثاً.

ولا عاراً.

ولا نقصاً.

هبة.

ثم:

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.

الجميع هبات.

ليست قيمة الإنسان في جنسه.

بل في عبوديته ومقامه عند الله.

ثم يقول:

﴿أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَآثًا﴾.

يجمع لهذا بين النوعين.

ثم:

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾.

وهنا موضع يحتاج قلباً رقيقاً.

فالآية التي سمت الأولاد هبة هي نفسها التي تذكر أن الحرمان من الولد داخل المشيئة كذلك.

وهذا لا يعني أن الألم ليس ألماً.

ولا أن الإنسان لا يدعو ويطلب ويتعالج.

لكن القرآن ينقل القضية من مساحة الإهانة الاجتماعية إلى مساحة القدر الإلهي.

العقيم ليس أقل إنسانية.

وليس بالضرورة معاقباً.

وليس ناقص القيمة عند الله.

إنما وقع عليه تقدير من تقديرات الملك.

وهذا مهم؛ لأن المجتمعات قد تظلم الإنسان مرتين:
مرة بألمه.

ومرة بنظرتها إليه.

فيأتي القرآن فيرفع عنه الثانية.

لا تجعلوا الأولاد مقياس الكرامة.

فالهبة تُعطى هنا.

وتمنع هناك.

والكرامة شيء آخر.

ثم تختم الآية:

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

عليم بما يعطي.

عليم بمن يمنع.

عليم بما تتحمله القلوب.

عليم بالمستقبل الذي لا تراه.

قدير على أن يعطي من ظننته لا يمكن أن يعطي.

وقدير كذلك أن يمنع مع اكتمال الأسباب.

وهنا تتكشف محدودية الإنسان.

فالأطباء يملكون أسباباً.

والإنسان يملك رغبات.

لكن لا أحد يملك مفاتيح الخلق.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

ما أجمل أن تأتي هذه الحقيقة بعد الحديث عن الفرح بالنعم والكفران عند المصائب!

كأن السورة تقول:

لا تبني علاقتك بالله على صورة العطاء وحدها.

إن أعطاك فهو الله.

وإن منعك فهو الله.

إن رزقك بنتاً فهي هبة.

وإن رزقك ابناً فهو هبة.
 وإن جمع لك النوعين فهي هبة.
 وإن قدر عليك العقم فلا تخرج من عبوديته.
 فأنت لا تعبد العطاء.
 أنت تعبد المعطي.
 والفرق بينهما يصنع الإيمان كله تقريباً.
 من عبد العطاء أحسن الظن بالله ما دام يأخذ.
 فإذا منع اضطرب.
 أما من عرف المعطي، فإنه يتألم عند المنع، نعم، لكنه لا يقطع خيط الثقة.
 وقد يدعو سنين.
 ويبكي.
 ويطرق الباب.
 ولكن في أعرق أعماقه يبقى معنى واحد:
 ربي أعلم بي.
 وهذا لا يلغي الحزن.
 بل يمنع الحزن من أن يتحول إلى خصومة مع الله.
 ثم إذا تأملت البناء من بداية السورة إلى هنا وجدت أن معنى الهبة لم يأت منفصلاً عن
 معنى الرزق.
 قال:
 ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.
 ثم:
 ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾.
 ثم:
 ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَا﴾.
 والآن نكتشف أن الرزق ليس مალأ فقط.
 الولد رزق.
 والبنت رزق.

والصحة رزق.

والهداية رزق.

والفهم رزق.

والقلب اللين رزق.

وقد يكون لإنسان مال كثير ورزقه في موضع آخر قليل.

وقد يملك آخر قليلاً من الدنيا، لكنه رُزق قلباً إذا سجد شعر أنه أغنى أهل الأرض.

إن السورة توسع مفهوم الرزق حتى لا يبقى القلب سجين الحساب المادي.

ثم تقف بنا هذه الآيات عند معنى مهيب:

كل حياتك تجري داخل ملك الله.

مصيرك.

رزقك.

أولادك.

منعك.

عطاؤك.

هدايتك.

رجوعك.

دعوتك.

خصوصتك.

كلها ليست جزراً متفرقة.

بل تقع داخل ربوبيته الواحدة.

ولهذا لا يستطيع المؤمن أن يقسم حياته إلى مناطق فيها الله ومناطق خارج عنه.

الله رب المحراب.

ورب السوق.

ورب الأسرة.

ورب المجتمع.

ورب البحر.

ورب العاصفة.

ورب الولد.

ورب الدمعة التي لم ينزل بعدها ولد.

ورب الآخرة التي ينكشف فيها المعنى كله.

ومن هنا تنهياً السورة لخاتمها الكبرى.

فبعد أن حدثنا عن كل هذه الآثار في الأرض والإنسان، ستعود إلى السؤال الأول:

كيف يصل كلام الله إلى البشر أصلاً؟

كيف يسمع الإنسان عن الغيب؟

كيف تأتي هذه الهداية التي ربت لنا الكون والحياة والمصير؟

وهناك ستقف السورة عند واحدة من أهيب آيات الوحي:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

ثم ستغلق الدائرة التي فتحتها أول السورة:

بدأت بـ:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾.

وستنتهي بـ:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

هناك ستتكشف لنا المفاجأة الأخيرة في السورة:

أن هذا القرآن الذي ظل يحدثنا عن العالم، وعن الإنسان، وعن المجتمع، وعن الرزق،

وعن الألم، وعن المصير...

ليس مجرد كتاب يدل على الحياة.

إنه هو نفسه:

روح.

والروح إذا دخلت الجسد أحييت ما كان ميتاً.

وكذلك الوحي إذا دخل القلب.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: حين تعود السورة إلى باب الوحي ويكتمل قوس النور

ها نحن نصل إلى آخر الطريق.

لكن العجيب أن آخر الطريق يعيدنا إلى أوله.

كأن سورة الشورى أخذتنا من باب، وطافت بنا في السماوات والأرض، وفي التاريخ والمجتمع، وفي القلب والرزق، وفي المطر والبحر، وفي الظلم والعفو، وفي الأبناء والحرمان، ثم أعادتنا أخيراً إلى الباب نفسه الذي دخلنا منه:

باب الوحي.

في المطلع:

﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وفي الختام:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾.

ثم:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

إنه بناء لا يكاد المرء يفرغ من تأمله.

السورة بدأت بالسؤال الذي يحتجى خلف كل القرآن:

من أين جاء هذا الكلام؟

ثم ختمت بالإجابة عن:

كيف يصل كلام الله إلى البشر؟

كأن السورة كلها واقعة بين فعلين:

﴿يُوحِي﴾

و

﴿أَوْحَيْنَا﴾.

وبينهما تتحرك حياة الإنسان بأكملها.

فالإنسان لا يعرف وحده لماذا خُلق.

ولا يعرف وحده ماذا وراء الموت.
 ولا يستطيع بعقله المجرد أن يخترع الطريق إلى الله.
 وقد يعرف شيئاً من الخير بفطرته وعقله، لكنه لا يستطيع أن يستقل بمعرفة الغيب، ولا بتفاصيل مراد الله، ولا بمصيره النهائي.
 ولهذا كان الوحي أعظم حدث وقع في تاريخ الإنسان.
 ليس لأنه أضاف كتاباً إلى مكتبة العالم.
 بل لأنه فتح للأرض نافذة على السماء.
 ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً﴾.
 تأمل البداية:
 ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.
 هناك مسافة بين الخالق والمخلوق لا تُجسر على طريقة البشر بعضهم مع بعض.
 الله سبحانه ليس كمثله شيء.
 وقد قررت السورة ذلك في وسطها:
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
 وهنا تأتي ثمرة ذلك التنزيه في قضية الكلام والوحي.
 إن اتصال السماء بالأرض لا يجري وفق مقاييس العلاقات البشرية.
 بل بالكيفية التي يشاؤها الله ويأذن بها.
 ﴿إِلَّا وَحياً﴾.
 إلقاء يبلغه الله من يشاء من أنبيائه على الوجه الذي يريده سبحانه.
 ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.
 كما كلم الله موسى عليه السلام.
 ﴿أَوْ يَرْسِلَ رَسُولاً﴾.
 رسولاً من الملائكة.
 فيبلغ النبي ما شاء الله أن يبلغه.
 ثم:
 ﴿فِيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.
 لاحظ كيف تكرر معنى المشيئة والإذن.

ليس الوحي فوضى روحانية.
 ولا تجربة نفسية يصنعها الإنسان من أعماقه.
 ولا ومضات غامضة يخلط فيها المتلقي بين ذاته والسماء.
 إنه أمر إلهي منضبط.
 الله يشاء.
 والله يأذن.
 والرسول يبلغ.
 والنبي يتلقى.
 ولهذا يحمل الوحي في بنيته منذ البداية معنى العبودية.
 حتى الرسول ﷺ لا يصنع الرسالة.
 إنه يتلقاها.
 ولا يملك أن يضيف من عنده إلى كلام الله ما يشاء.
 ولهذا كان القرآن شديد الوضوح في الفصل بين الرب والعبد، وبين الوحي وصاحبه الذي
 يتلقاه.
 وفي هذا وحده حماية للعقل من أخطر أوهامه:
 أن يحول التجربة الداخلية إلى شريعة.
 أن يظن كل خاطر إلهاماً.
 وكل انفعال ديني وحيّاً.
 وكل ما يعجبه مراداً لله.
 السورة تقول:
 هناك وحي.
 وله طريق.
 وله إذن.
 وله مرسل.
 وله متلقٍ.
 والله فوق ذلك كله.
 ثم تختم الآية باسمين:

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

هنا ينبغي أن نتوقف.

في أول السورة:

﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم:

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

وفي آخرها:

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

كأن الخاتمة تجمع خيطين من المطالع:

العلو.

والحكمة.

هو العلي؛ فلا يُقاس بالخلقين.

وهو الحكيم؛ فلا يكون في وحيه عبث.

فما نزل من عند العلي لا ينبغي أن يُحاكم إلى أهواء الأرض.

وما جاء من الحكيم لا ينبغي أن يظن الإنسان أن سلامته في مخالفة حكمته.

وهنا يصبح معنى السورة أوسع مما بدا لنا في أول الطريق.

سورة الشورى لا تريد فقط أن تقول:

تشااوروا.

إنها تريد قبل ذلك أن تحدد من أين تستمد الجماعة هدايتها قبل أن تتشااور.

فالناس يمكن أن يتشااوروا في الوسائل.

وفي المصالح.

وفي السياسات.

وفي طرق التنفيذ.

لكنهم لا يجلسون ليقرروا هل يصبح الباطل حقاً.

ولا ليصوتوا على ما شرع الله بعد أن ثبت حكمه.

لأن فوق الشورى وحيّاً.

وفوق إرادة الجماعة إرادة الله.

وهنا يكتمل الميزان:

لا استبداد فردي يلغي الناس.

ولا سيادة هوى جماعي يلغي الوحي.

الله يهدي، والناس يتشاورون في أمرهم تحت هدايته.

ثم تأتي الآية التي لعلها أجمل مفتاح لفهم السورة كلها:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

روحاً.

ما الذي يمكن أن يقال بعد هذه الكلمة؟

لم يقل: علماً فقط.

ولم يقل: أحكاماً فقط.

ولم يقل: كتاباً فقط.

قال:

﴿رُوحاً﴾.

والروح هي التي تجعل الجسد جسداً حياً.

يمكن أن تكون الأعضاء كلها موجودة.

العين.

واليد.

والقلب.

والعظم.

والدم.

لكن إذا غابت الروح صار الجسد كله جثة.

وهكذا الإنسان بلا وحي.

قد يكون ذكياً.

قوياً.

غنياً.

متعلماً.

يملك التقنيات.

وبيني المدن.

ويقطع البحار.

ويرتاد الفضاء.

لكن إذا انقطعت صلته بالهداية التي تعرفه بربه وبغايته ومصيره، فقد يمتلك أدوات الحياة ولا يعرف لماذا يعيش.

وهذه أزمة الحضارة حين تكبر أدواتها وتصغر أجوبتها.

تعرف كيف تُطيل العمر، لكنها قد تعجز أن تقول لك: لأي شيء يستحق العمر أن يطول؟

تعرف كيف تنقل الإنسان بسرعة، لكنها لا تجيب وحدها: إلى أين ينبغي له أن يسير؟

تعرف كيف تزيد المتعة، لكنها لا تملك أن تجعل كل متعة معنى.

وتعرف كيف تفكك المادة، لكنها لا تستطيع بالاختبر وحده أن تخبر الإنسان ماذا ينتظره بعد القبر.

وهنا يأتي الوحي:

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

ليس ضد العقل.

بل هو النور الذي يضع العقل في الأفق الكامل.

وليس ضد الحياة.

بل روحها.

وليس دعوة إلى الهروب من الأرض.

بل هداية تجعل وجودك على الأرض موصولاً بالسماء.

وهذا التعبير يلقي نوراً جديداً على كل ما مضى في السورة.

حين قالت:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾

كانت تدعونا إلى إقامة الروح في الحياة.

وحين قالت:

﴿فُكِّمَهُ إِلَى اللَّهِ﴾

كانت تحرس الروح من أهواء البشر.

وحين قالت:

﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

كانت تصف المجتمع الذي سرت فيه هذه الروح.

وحين قالت:

﴿فَنَ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾

كانت ترينا كيف تتحول الروح إلى خلق.

وحين قالت:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

كانت ترينا كيف تدخل الروح إلى المال.

وحين قالت:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾

كانت ترينا كيف تدخل الروح إلى الغضب.

وحين قالت:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾

كانت ترينا المعرفة التي تسند الروح حين تضيق بها الحياة.

إذن فالوحي ليس فصلاً من فصول الدين.

إنه الدم الذي يسري في جسد الدين كله.

ثم يقول سبحانه:

﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾.

هذه الآية تضع النبوة نفسها في موضعها الصحيح.

محمد ﷺ قبل الوحي لم يكن يعرف تفاصيل هذا الكتاب الذي سينزل عليه، ولا تفاصيل

شرائع الإيمان التي جاء بها الوحي.

لم يصنع القرآن من ثقافته.

ولم يجلس في غار حراء ليؤلف مشروفاً دينياً ثم خرج به إلى الناس.

الوحي جاءه من خارج ذاته البشرية.

وهنا ينهار تصور من يتعامل مع القرآن على أنه انعكاس لنفس النبي أو بيئته.

فالآية نفسها تقول:

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾.

الكتاب لم يخرج منه.

بل نزل إليه.

وهذا فرق جوهري.

الرسول ﷺ ليس مؤلف الوحي.

إنه أول من تشرف بحمله.

أول من خطب به.

أول من خضع له.

أول من أقامه في حياته.

ولهذا فكل مجد النبي ﷺ في هذا الباب نابع من كمال عبوديته لما أوحى إليه، لا من

مشاركته في مصدر الوحي.

ثم تأتي المقابلة الرائعة:

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾.

قبل قليل:

﴿رُوحًا﴾.

والآن:

﴿نُورًا﴾.

يا لهذا الجمع.

القرآن روح لأنه يحيي.

ونور لأنه يكشف.

فالمشكلة في الإنسان ليست موت القلب وحده.

هناك أيضاً ظلمة الطريق.

فجاء الوحي لحايتين فينا:

الحياة.

والرؤية.

روحاً للأموات من الداخل.

ونوراً للخائرين في الخارج.

ويمكن لجسد حي أن يضل إذا كان في الظلام.
كما يمكن لمصباح قوي أن لا ينفع جثّة لا حياة فيها.
لكن القرآن يجمع:

روحاً ونوراً.

يحييك أولاً.

ثم يريك أين تمشي.

وهذه من أدق الصور القرآنية لطبيعة الهداية.

فالقرآن لا يطلب منك فقط أن تعرف الحق.

يريد أن يصبح قلبك حياً بحيث يحب الحق.

وأن تعرف الباطل، ثم يكون فيك من الحياة ما يجعلك قادراً على تركه.

كم من إنسان يعرف ولا يفعل!

المشكلة ليست دائماً في غياب الضوء.

قد يكون الطريق واضحاً لكن القلب ميت.

ولهذا نحتاج إلى القرآن بوصفه نوراً وروحاً معاً.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

هنا تتكرر حقيقة مرت بنا منذ أوائل السورة:

الهداية من الله.

القرآن نور.

لكن كم من إنسان يقرأ النور بعين مغلقة؟

كم من مستشرق قضى عمره في ألفاظ القرآن ولم يسجد لله؟

وكم من مسلم يمر على الآيات سنوات، ثم تأتي لحظة صدق واحدة فتفتح له آية كأنها

نزلت تلك الساعة؟

النور موجود.

لكن فتح القلب للنور هداية أخرى.

ولهذا:

﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾.

وهذا لا يدعو إلى السلبية.

بل إلى الافتقار.
 أن تقرأ وأنت تقول في قلبك:
 يا رب، لا تجعلني ممن تمر عليهم الآيات ولا يدخل منها شيء.
 يا رب، علمني بها.
 اهدني بها.
 اكشف لي بها عيوب قبل عيوب الناس.
 اجعلها حجة لي لا علي.
 فالقرآن قد يكون بين يدي الإنسان، ومع ذلك يبقى بينه وبين معناه حجاب صنعه الكبير أو
 الهوى أو الإصرار على الذنب.
 ولهذا كان من أخطر الأسئلة:
 ليس: هل أملك مصحفاً؟
 بل:
 هل يملك القرآن شيئاً مني؟
 هل غير قراراً؟
 هل كسر عادة؟
 هل ردني عن ظلم؟
 هل رقق قلبي؟
 هل أصلح علاقتي بربي؟
 هل أعاد ترتيب مفهوم النجاح والفشل في داخلي؟
 إن لم يحدث شيء من ذلك، فعلينا أن نخاف أن يكون الضوء حولنا ولم نفتح النافذة.
 ثم تأتي المفاجأة اللطيفة:
 ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
 قبل قليل:
 الله يهدي.
 وهنا:
 النبي يهدي.
 ولا تعارض.

لأن الهداية لها مراتب ومعانٍ.
الله وحده يملك هداية القلوب والتوفيق والإيمان.
والرسول ﷺ يهدي بمعنى يدل، ويرشد، ويبين الطريق.
وهذا التوازن يحفظ للنبي ﷺ مقامه العظيم دون أن يُرفع فوق مقام العبودية.
هو دليل البشرية إلى الطريق.
لكنه لا يخلق الهداية في القلوب.
وهذا من صفاء التوحيد.
نحب الرسول ﷺ.
ونتبعه.
ونعظمه التعظيم الشرعي.
ونعلم أن الله أرسله رحمة ونور هداية.
لكن القلب لا يجعل له شيئاً من خصائص الرب.
فهو نفسه عبد تلقى الوحي.
وهذه السورة منذ أولها تحفظ الحدود كلها في أجمل اتزان.
الله يوحى.
والرسول يتلقى.
والرسول يدل.
والله يهدي.
ثم إلى أين يدل النبي؟
﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
الصراط.
الطريق.
وهنا نكتشف أن السورة التي كثرت فيها الطرق المتعارضة - أهواء، أولياء، شركاء،
اختلافات، بغي، حرث الدنيا وحرث الآخرة - تنتهي أخيراً بطريق واحد.
صراط مستقيم.
الدنيا مليئة بالطرق.
كل فكرة تقول لك: من هنا.

كل شهوة تقول: أنا الطريق الأقصر.
كل ثقافة تحاول أن تعيد تسمية الأشياء.
لكن القرآن لا يترك الإنسان أمام خريطة بلا وجهة.
هناك صراط.

وهو مستقيم.
لا يلتوي بك بعيداً عن الله وإن بدت لك التواءات الهوى أكثر متعة في أولها.
ثم تأتي آخر آية:
﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.
هنا تختم السورة كما بدأت.
في أولها:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
وفي آخرها:
﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
نفس الحقيقة تعود.

لكننا الآن نسمعها بعد رحلة طويلة.
في البداية كانت إعلاناً عن الملك.
وفي النهاية صارت خاتمة لكل ما عرفناه في الطريق.
لمن السماوات؟
لله.

ولمن الأرض؟
لله.

ولمن الإنسان؟
لله.

ولمن التشريع؟
لله.

ولمن الولاية؟
لله.

ولمن الحكم؟
لله.

ومن يرزق؟
الله.

ومن يغفر؟
الله.

ومن ينزل الغيث؟
الله.

ومن يهب الذكور والإناث؟
الله.

ومن يهدي؟
الله.

وإلى من تنتهي القصة كلها؟
﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.
يا لهذه الخاتمة!

لم يقل فقط: ترجعون إلى الله.
بل:

﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

الأمر كلها.

ذلك الأمر الذي أفلقك.

وتلك القضية التي لم تعرف كيف تنتهي.

وذلك الظلم الذي مات صاحبه قبل أن ينال حقه.

وتلك دمعة لم يفهمها أحد.

وذلك الخير الذي لم يشكره عليه بشر.

وتلك الخصومة التي اختلطت فيها الروايات.

وتلك الدعوة التي دعوتها ولم تجوابها في الوقت الذي أردت.

وتلك الأقدار التي بقيت في ذهنك بلا تفسير.

كلها:

﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

لا شيء يضيع في الطريق.

لا قضية تسقط من ملف الوجود.

لا دمة تليه في الزحام.

لا حق يفنى لأن صاحبه مات.

لا باطل يصير حقاً لأنه انتصر زمناً.

فالأمور لا تصير في نهايتها إلى التاريخ.

ولا إلى الأقوى.

ولا إلى الجمهور.

ولا إلى رواية المنتصرين.

إنها تصير:

إلى الله.

وهنا تهدأ أشياء كثيرة في القلب.

فأنت لست مكلفاً أن ترى كل العدالة تتحقق أمام عينيك.

ولا أن تفهم كل سر.

ولا أن تصلح العالم كله قبل موتك.

عليك أن تكون في الصراط.

أن تستجيب.

أن تستقيم.

أن تزرع حراث الآخرة.

ثم تدع نهاية الأمور لمن قال:

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

بين ﴿حم * عسق﴾ و﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

والآن فقط نستطيع أن ننظر إلى السورة من أعلى.

لقد بدأنا أمام:

﴿حم * عسق﴾.

حروف قليلة.

وكان المعنى ما يزال وراء ستر.

ثم:

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾.

انفتح الباب.

ثم رأينا السماوات تكاد يتفطرن.

والملائكة يسبحون.

وأم القرى تنذر.

ويوم الجمع يلوح.

والله هو الولي.

والاختلاف يرد إلى حكمه.

والسماوات والأرض تتطقان بوحدانيته:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ثم مر بنا موكب الأنبياء:

نوح.

وإبراهيم.

وموسى.

وعيسى.

ومحمد ﷺ.

وسمعنا النداء:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

ثم رأينا كيف يفسد البغي العلم.

وكيف يقيم الكتاب الميزان.

وكيف أن الساعة قريب.

وكيف يلفظ الله بعباده.

وكيف يزرع الناس حرثين:

حرث الدنيا.

وحرث الآخرة.
 ثم شاهدنا رحمته تقبل التوبة.
 وتعفو عن السيئات.
 وتجيب الدعاء.
 وتقدر الرزق حتى لا يطغى الإنسان.
 ثم نزل الغيث على الأرض بعد القنوط.
 وتعلمنا أن المنع قد يكون لطفًا، وأن العطاء قد يأتي بعد لحظة يأس.
 ثم صعدت بنا السورة إلى السماوات.
 وأعادتنا إلى مصائب أنفسنا:
 ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.
 ثم حملتنا إلى البحر.
 ورأينا السفن كالأعلام.
 وتعلمنا أن الريح التي تحملنا ليست ملكًا لنا.
 ثم وضعت الدنيا كلها في جملة:
 ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَتَّعُوا حَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
 ثم بنت الإنسان المؤمن:
 يتوكل.
 ويجتنب الكبائر.
 ويغفر عند الغضب.
 ويستجيب لربه.
 ويقوم الصلاة.
 ويشاور إخوانه.
 وينفق.
 وينتصر من البغي دون أن يبغي.
 ويعفو إذا كان العفو إصلاحًا.
 ويصبر ويغفر حين يكون ذلك من عزم الأمور.
 ثم أخذتنا إلى القيامة.

ورأينا الذين يطلبون الرجوع بعدما صار الرجوع مستحيلاً.
وتعلمنا معنى الخسارة الحقيقية.

ثم عدنا إلى البيت.

إلى بنت تولد.

وإلى ابن يوهب.

وإلى بيت يجمع الله له الذكران والإناث.

وإلى قلب أبيي بالعقم، فقال له القرآن إن الأمر ليس مهانة، بل تقدير من:
﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

ثم بعد كل ذلك...

عاد بنا القرآن إلى البداية:

الوحي.

كأن السورة تقول:

كل ما رأيتموه لم تكونوا لتعرفوه على وجهه إلا لأن السماء تكلمت.

الشورى: من الوحي إلى المجتمع

وعند هذه النقطة يظهر سر اسم السورة بوضوح أشد.

لماذا تُسمى سورة كاملة بالشورى، مع أن كلمة الشورى لم تأت إلا مرة واحدة؟

لأن الآية ليست جزية.

إنها ثمرة شجرة السورة كلها.

فالذي سيشااور الآخرين بحق يجب أن يتعلم أولاً من ﴿حم * عسق﴾ أن عقله محدود.

ويتعلم من ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ أن فوق عقله وحياً.

ويتعلم من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أن الله وحده فوق الخلق.

ويتعلم من ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أن ذاته ليست الحكم النهائي.

ويتعلم من ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أن الأكثرية قد تهوى.

ويتعلم من ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أن الرأي بلا عدل قد يصبح استبداداً.

ويتعلم من ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ كيف يحتل الاختلاف.

ويتعلم من ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ألا يجعل الشورى باباً للاستسلام

للطغیان.

ثم يكون مؤهلاً لأن يقول القرآن عنه:

﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

إذن فالشورى هنا ليست تقنية.

إنها ثمرة عقيدة.

وثمرة تواضع.

وثمرة عبودية.

وثمرة أخلاق.

ولهذا لا يكفي أن نكتب الشورى في الدساتير إذا بقيت النفوس تستبد.

ولا يكفي أن نصنع المجالس إذا كان كل إنسان يدخل المجلس وهو يعتقد أن الصواب لا يمكن أن يولد إلا في رأسه.

الشورى تبدأ من داخل الإنسان قبل أن تظهر في شكل المؤسسة.

إنها اعتراف بأنك عبد لا إله.

وأنت ناقص العلم.

وأن أذاك قد يرى من زاوية لم ترها.

وأن المصلحة العامة ليست ملكاً لك.

وأن التراجع عن الخطأ ليس سقوطاً.

بل ربما كان أعلى صور القوة.

وهكذا تصبح الشورى أثراً اجتماعياً للتوحيد.

من لم يناع الله في ربوبيته، كان أجدر ألا يناع الناس حقهم في أن يُسمعوا.

سورة السماء والأرض والقلب

ومن أجمل ما يطبع السورة أنها لا تفصل الكون عن النفس.

فالسما تكاد تنفطر.

والملائكة تسبح.

والغيث ينزل.

والسفن تجري.

والرياح تسكن.

والسماوات والأرض مملوكتان لله.

لكن في الوقت نفسه:

القلب ينيب.

والإنسان يفرح.

ثم يكفر عند المصيبة.

ويغضب.

ويغفر.

ويتوكل.

ويطغى إذا بسط له الرزق.

ويجنح إذا ضاق.

إن الكون والنفس يتحركان معاً في سورة الشورى.

كأن القرآن يقول:

الرب الذي يدبر الريح التي تحمل السفينة، هو نفسه الذي يدبر الرزق الذي يدخل بيتك.

والذي ينزل الغيث على الأرض اليابسة يستطيع أن ينزل الرحمة على قلبك اليابس.

والذي يبث الدواب في السماوات والأرض، لا يعجزه أن يحيي الموتى.

والذي يحفظ توازن الكون هو الذي أنزل الميزان ليحفظ توازن حياة الإنسان.

الكون له سننه.

والقلب له سننه.

والمجتمع له سننه.

والوحي يعلمك كيف تعيش داخل هذا كله عبداً لله.

من الغيث إلى الروح: صورتان للحياة

ولعل من أبداع التناسب في السورة أن فيها صورتين للحياة:

الماء.

والروح.

في وسطها:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

وفي آخرها:

﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾.

الماء يحيي الأرض.
والوحي يحيي القلب.
أرض قاحلة ينتظر أهلها الغيث.
وقلب قاحل ينتظر الوحي.
تنزل قطرة فتشق البذرة اليابسة.
وتنزل آية فتشق قسوة القلب.
تخضر الأرض.
ويخضر الإنسان من الداخل.
وهذا ربما أجمل معنى يمكن أن نخرج به من السورة:
أن للقلوب مواسم حط كما للأرض.
وقد يظن الإنسان في بعض مراحل حياته أن شيئاً فيه قد مات.
خشوعه.
رجاؤه.
رغبته في الخير.
معنى العبادة في داخله.
ثم تمر به آية...
فتنزل كما ينزل الغيث.
وبين ليلة وصباح ترى شيئاً في داخلك بدأ ينبت من جديد.
ذلك هو القرآن:
﴿رُوحًا﴾.
وذلك هو القرآن:
﴿نُورًا﴾.
ومن الوحي إلى الله
ثم تأتي الكلمة الأخيرة:
﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.
كأنها آخر يد تضعها السورة على كتفك قبل أن تفارقها.
لقد حدثتك عن أشياء كثيرة.

لكن لا تضيع في كثرتها.
 كلها إلى الله.
 بدأت منه.
 وتجري بتديره.
 وتنتهي إليه.
 ومن هنا يستريح قلب المؤمن.
 ليس لأنه فهم كل شيء.
 بل لأنه عرف إلى من يصير كل شيء.
 وقد تكون هذه درجة من اليقين أعلى من أن تعرف تفسير كل حادثة.
 أن تقول:
 لا أعرف لماذا وقع هذا الآن.
 ولا أعرف لماذا فتح هذا الباب وأغلق ذاك.
 ولا أعرف لماذا أعطي فلان ومنعت.
 ولا أعرف متى ينتهي هذا البلاء.
 لكنني أعرف شيئاً أكبر:
 ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.
 وحين تعرف النهاية، تستطيع أن تتحمل بعض غموض الطريق.
 خاتمة الرحلة
 حين تخرج من سورة الشورى
 حين تخرج من سورة الشورى، لا ينبغي أن تخرج كما دخلت.
 يفترض أن يكون شيء ما قد أعيد ترتيبه فيك.
 أن تعرف أن أعظم نعمة ليست المال، بل الوحي.
 وأن أعظم خسارة ليست الفقر، بل ضياع النفس.
 وأن الغنى قد يكون رحمة وقد يكون فتنة.
 وأن المنع قد يخفي لطفاً.
 وأن المصيبة تستحق محاسبة لا اعتراضاً.
 وأن العفو قوة إذا أصلح.

وأن مقاومة الظلم ليست مناقضة للرحمة.
 وأن الشورى أخلاق قبل أن تكون نظاماً.
 وأن الإنسان لا يستغني عن الناس، لكنه لا يتخذهم أولياء من دون الله.
 وأن الدنيا مهما اتسعت:
 ﴿فَتَتَّاعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
 وأن ما عند الله:
 ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.
 وأن رزقك ليس نتيجة قدرتك وحدها.
 وأن أولادك هبات.
 وأن ما مُنعت منه ليس دليلاً على أنك هنت على الله.
 وأن القلب إذا مات لا يحياه صخب الدنيا، بل يحتاج:
 ﴿رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾.
 وأن الطريق إذا أظلم لا يكفي أن تسرع، تحتاج إلى:
 ﴿نُوراً نَهْدِي بِهِ﴾.
 ثم تعرف في النهاية أنك مهما تعددت أمورك، وتفرقت همومك، وتشعبت مسالك حياتك،
 فإنها كلها تضي في اتجاه واحد:
 ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.
 وهنا يصبح أول السورة أوضح من أي وقت مضى:
 ﴿حَمْدٌ * عَسَقُ﴾.
 بدأت الرحلة بحروف لا نملك أن نستنفد سرها.
 وانتهت بحقيقة لا يحتاج القلب بعدها إلى شيء:
 الله تكلم بالوحي. والوحي روح ونور. والرسول يدل إلى الصراط. والصراط صراط الله.
 والكون ملك الله. والأمور كلها تصير إلى الله.
 وبين أول حرف وآخر معنى...
 تقف حياة الإنسان كلها.
 فطوبى لقلب دخل هذه السورة وهو يبحث عن معنى، وخرج منها وهو يعرف إلى أين يسير.
 وطوبى لمن سمع قول الله:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

فأقام الدين أولاً في نفسه.

وطوبى لمن دخل في جماعة المؤمنين الذين:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وطوبى لمن استقبل تقلبات الرزق وهو يعلم أن ربه:

﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾.

وطوبى لمن أصابه القحط في قلبه فلم ييأس من الغيث.

وطوبى لمن كثرت ظلمات الطريق حوله، ثم أمسك بهذا القرآن وقال:

هذا نوري.

وطوبى لمن ضعفت روحه تحت أثقال الدنيا، ثم عاد إلى الوحي وقال:

وهذه روحي.

ثم مضى...

على صراط الله...

حتى تصير الأمور كلها إلى الله.

تمت رحلة سورة الشورى، والحمد لله رب العالمين.